ابو الحسن علي الحسني الندوي

سيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم

مؤسسة الرسالة

الطبعة التاسعة
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد ؛ فان أكبر مجموعة من الكلمات وأبلغ بيان يقصران عن إيفاء حق الحمد والشكر لله تعالى ، وعن التعبير عن السرور الذي يغمر قلب كاتب هذه السطور وهو يقدم الجزء الأخير لسلسلة « قصص النبيين للأطفال » وهو الجزء الخاص بسيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، وقد مدّ الله عمر الكاتب ورافقه التوفيق الآلهي فأكمل هذه السلسلة المباركة وختمها بختم هو مسك الختام ، ولو عجّلت به منيته ومات قبل أن يكملها لحمل معه حسرة لا تنتهي ، وحاجة في نفس يعقوب ما قضاها ، وقد كان الشيء الزهيد من الأشغال والحوادث كافياً ليشغله عن وضع هذا الكتاب وإكمال هذه السلسلة ، وفي تاريخ التأليف والكتابة وتراجم المؤلفين الكبار نماذج من السلاسل التي لم تكمل ، والأعمال التي لم تتم .

وقد تعرّض المؤلف نفسه لمثل هذا الخطر ، فقد وقعت فترة مدة

ثلاثين سنة بين جزء « قصص النبيين » الذي انتهى الى قصة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وبين الجزء الذي ابتدأ بقصة سيدنا شعيب ، وانتهى الى قصة سيدنا عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وما بالحياة ثقة ، وليس على ريب الزمان معوّل ، ولكن أدركه اللطف الآلهي ، وحالفه التوفيق ، فشرع في وضع السيرة النبوية للأطفال على اثر انتهائه من تأليف الجزء الأخير من « قصص النبيين » ، وذلك في شوال سنة ١٣٩٥ هـ ، وعكف على تأليف هذا الكتاب حتى انتهى في مدة قريبة ، ثم اشتغل بتأليف الكتاب الكبير في السيرة النبوية وقد كان هذا الكتاب الصغير نواة هذا الكتاب الكبير وأساسه ، ووفّق لإتمامه في غرّة شوال سنة ١٣٩٦ هـ [١] .

وقد اعتمدت في تأليف هذا الكتاب على تلخيص السيرة النبوية لابن هشام–الذي هو من أقدم كتب السيرة الموجودة الآن مطبوعة متداولة وأكثرها تأثيراً في النفوس والقلوب–مستنداً في ذلك الى بعض المراجع القديمة وكتب الصحاح–ولم ير المؤلف ضرورة إحالة القارىء الى هذه المراجع بقيد الصفحات والطبعات ، لأن الكتاب قد ألف للصغار الناهضين لا للباحثين والمحققين–مقتصراً على النصوص والروايات ، لم أمزجها بالبحوث العلمية والتعليلات الفلسفية والشهادات الأجنبية ، لأن ذلك يشغل القارىء عن التشبع بروح

---

(١) أخرجته دار الشروق في جدة باسم « السيرة النبوية » ، وصدرت من القاهرة في ربيع الآخر سنة ١٣٩٧ هـ (ابريل ١٩٧٧ م) وجاء في ٤٧٥ صفحة بالقطع الكبير .

السيرة والتذوق بجمالها ، ولأن موضع هذه المباحث للكتاب الكبير الموسع في موضوع السيرة ، الذي كتب للمتوسعين في الثقافة ، المتقدمين في مداركهم العقلية والعلمية ، المواجهين للتساؤلات العصرية والكلامية ، والدراسات المقارنة .

ولم أتقيّد في هذا الكتاب بالالترامات التي التزمتها في الأجزاء الأولى من « قصص النبيين للأطفال » من محاكاة أسلوب الأطفال ، وطبيعتهم وتكرار الكلمات والجمل ، وسهولة الألفاظ ، وبسط القصة ، فقد شبّ هؤلاء القراء الصغار عن طوقهم ، وتقدموا في ثقافتهم اللغوية ... ودرجتهم العقلية ، فأصبحوا قادرين على إساغة هذا الغذاء العلمي العقلي ، والتذوق لهذه القصة الرائعة لحياة أكبر إنسان وأشرف نبي .

وهكذا جاء الكتاب – بحول الله تعالى – وسطاً بين الكتب التي ألفت في السيرة للكبار النابغين ، والكتب التي ألفت للصغار الناهضين ، فهو جدير بأن يدرسه الصغار المراهقون في مدارسهم ، ويقرأه الكبار المتوسطون في مكتباتهم ومنازلهم ، ويقدم كذلك إلى غير المسلمين ، أو ينقل إلى لغات أجنبية وقد جاءت فيه خلاصة السيرة ولبابها ، وروائع حكاياتها وأخبارها ، وتاريخ الدعوة الاسلامية الأولى وفتوحها وانتصاراتها ، وعجائب التربية النبوية ومعجزاتها ، فأصبح الكتاب مدرسة كاملة ينشأ فيها الطالب بين إيمان وحنان ويتقلب بين روح وريحان ، ويخرج منها وقد حمل معه الزاد الذي يسايره في حياته ، والنور الذي يسير في ضوئه ، والسلاح الذي يدافع به عن نفسه وإيمانه ، والرسالة التي يحملها للعالم والأمم .

ولما كان الكتاب قد ألف لتلاميذ المدارس الثانوية وما شاكلها، رأى المؤلف ضرورة شرح المفردات الغربية، وما هي فوق مستوى هؤلاء القراء الصغار، فطلب من الأستاذ نور عالم الأميني الندوي، وهو يمارس التدريس في دار العلوم ندوة العلماء، ويعرف مستوى أمثال هؤلاء التلاميذ الثقافي، أن يتناولها بالشرح والايضاح، فقام بذلك مشكوراً، جزاه الله خيرا.

وأخيراً لا آخراً أحمد الله على هذا التوفيق وأشكره على آلائه ونعمه، وأسأله القبول وأن ينفع به الجليل الجديد، والناشئة المسلمة التي تحيط بها العواصف وتفرش في طريقها الأشواك.

والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ...

١٥/من ذي القعدة ١٣٩٧ هـ

٢٩/اكتوبر ١٩٧٧ م

أبو الحسن علي الحسني الندوي
دارة الشيخ علم الله
رأى بريلي

العصر الجاهلي

بعد نبي الله عيسى بن مريم

طالت الفترة[1] ، وساد الظلام في العالم ، وغاب النور والعلم ، وخفتت الأصوات التي رفعها الأنبياء والمرسلون في عصورهم ، بالتوحيد النقي والدين الخالص ، في صيحات الجهل والضلالة التي صاح بها المحترفون والدجّالون ، وانطفأت المصابيح التي أوقدها أنبياء الله ورسله وخلفاؤهم ، من العواصف التي هبّت حيناً بعد حين .

(١) الفترة : الزمن الذي لم يبعث فيه نبي .

الديانات القديمة

وأصبحت الديانات العظمى - وفي آخرها المسيحية السمحة - فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرِّفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بُعث أصحابها الأولون وأنبياؤها المرسلون أنكروها وتجاهلوها .

أصبحت اليهودية مجموعة من طقوس[1] وتقاليد لا روح فيها ولا حياة ، وهي بصرف النظر عن ذلك ، ديانة سلالية لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، ولا للانسانية رحمة .

أما المسيحية فقد امتُحنت بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، منذ عصرها الأول ،

(١) النظم والطرق الدينية .

وأصبح كل ذلك ركاماً دُفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة ، واختفى نور التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وراء هذه السحب .

أما المجوس فقد عكفوا على عبادة النار ، يعبدونها ويبنون لها هياكل [1] ومعابد ، أما خارج المعابد فكانوا أحرارا ، يسيرون على هواهم وما تملي عليهم نفوسهم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ولا خلاق ، في الأعمال والأخلاق .

أما البوذية – الديانة المنتشرة في الهند وآسيا الوسطى – فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل

(١) جمع هيكل وهو البناء المرتفع ، والموضع الذي يكون في صدر المعبد يقرّب فيه القربان .

وتنصب تماثيل « بوذا » حيث حلّت ونزلت .

أما البرهمية – دين الهند الأصيل – فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة حتى بلغت إلى الملايين ، وبالتفاوت الظالم بين الطبقات ، والامتياز بين الانسان والانسان .

أما العرب فقد ابتُلوا في العصر الأخير بوثنية سخيفة لا يوجد لها نظير الاّ في الهند البرهمية الوثنية ، وترقّوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، وانغمست[1] الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام ، بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل لكل بيت صنم خصوصيّ ، وكان في جوف الكعبة – البيت الذي بناه ابراهيم عليه

(١) غاصت ، ودخلت .

السلام لعبادة الله وحده—وفي فنائها ثلاث مائة وستون صنما .

الجزيرة العربية

ساءت أخلاق العرب فأُولعوا بالخمر والقمار ، وبلغت بهم القساوة والحمية المزعومة إلى وأد البنات ، وشاعت فيهم الغارة ، وقطع الطريق على القوافل ، وسقطت منزلة المرأة ، فكانت تورث كما يورث المتاع أو الدابة ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الانفاق ، وخوف الفقر والإملاق .

وأغرموا بالحرب ، وهانت عليهم إراقة الدماء ، فتثيرها حادثة تافهة ، وتدوم الحرب أربعين سنة ، ويقتل فيها ألوف من الناس .

ظهر الفساد في البر والبحر

وبالجملة فقد كانت الانسانية في عصر البعثة في طريق الانتحار ، وكان الانسان في هذا القرن قد نسي خالقه ، فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح ، وربما كان اقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه ، ويعبد ربه ، ولا يشرك به شيئا ، وصدق الله العظيم : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون [1] » .

لماذا بُعث النبي في جزيرة العرب ؟

وقد اختار الله العرب ، ليتلقّوا دعوة

(١) سورة الروم – ٤١ .

الاسلام ، ثم يبلغوها الى أبعد أنحاء العالم لأن ألواح قلوبهم كانت صافية ، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة ، يصعب محوها وإزالتها ، شأن الروم والفرس وأهل الهند ، الذين كانوا يتيهون[1] بعلومهم وآدابهم الراقية ، ومدنياتهم الزاهية[2] ، أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطتها يد الجهل والبداوة ، ومن السهل الميسور محوها وغسلها ، ورسم نقوش جديدة مكانها .

وكانوا على الفطرة ، اذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه ، واذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه واحتضنوه ، واستماتوا في

---

(١) يتكبّرون .

(٢) النضرة المشرقة .

سبيله ، وكانوا أصحاب صدق وأمانة ، وجلادة وتقشف في الحياة ، وشجاعة وفروسية .

وفي جزيرة العرب وفي مكة كانت الكعبة التي بناها ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، لِيُعبد فيها الله وحده ، ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد الى آخر الأبد .

« ان أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين[1] » .

---

(١) سورة آل عمران – ٩٦ .

قبل البعثة

مكة وقريش

قصد سيدنا ابراهيم مكة ، وهي في واد محصور بين جبال جرداء ليس فيه ما يعيش عليه الناس ، من ماء وزرع وميرة[1] ، ومعه زوجه هاجر وولده اسماعيل ، فراراً من الوثنية المنتشرة في العالم ، ورغبة في تأسيس مركز يعبد فيه الله وحده ويدعو الناس اليه ، ويكون مناراً للهدى ومثابة للناس .

تقبل الله هذا العمل ، وبارك في هذا

(١) الطعام الذي يدخره الانسان .

المكان ، وأجرى الله الماء لهذه الأسرة المباركة الصغيرة المؤلفة من أم وابن — وقد تركهما ابراهيم في هذا المكان القاحل[1] المنعزل عن العالم — وكان بئر « زمزم » وبارك الله في هذا الماء فلا يزال الناس يشربون منه ويحملونه الى أنحاء العالم .

ونشأ اسماعيل ، وأراد ابراهيم ذبح ابنه اسماعيل ، وهو غلام يسعى ، إيثاراً لحبّ الله تعالى على حبّه ، وتحقيقاً لما رآه في المنام ، واستسلم اسماعيل لهذا الأمر ، ورضي به ، وفداه الله بذِبح عظيم ليكون عون أبيه في الدعوة الى الله ، وليكون جدّ آخر نبي وأفضل رسل .

وعاد ابراهيم الى مكة ، واشترك الأب

---

(١) اليابس .

والابن في بناء بيت الله ، وكان دعاؤهما أن يتقبل الله هذا البيت ، ويبارك فيه ، وأن يعيشا على الاسلام ، ويموتا عليه ، ولا ينقطع بموتهما ، وأن يبعث الله نبياً من ذريتهما يجدّد دعوة جدّه إبراهيم ويُتمّ ما بدأه .

« وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمَين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتُب علينا انك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم[1] » .

---

(١) سورة البقرة – ١٢٦ – ١٢٩ .

وبارك الله في ذريتهما ، وتوسّعت الأسرة ، وكثر أولاد عدنان ، وهو من أحفاد اسماعيل عليه السلام ، ونبغ في ذريته فهربن مالك ، ومن أولاده قصيّ بن كلاب ، وقد ولى البيت وأمر مكة ، وكان سيداً مطاعا ، كانت اليه حجابة البيت ، وعنده مفاتيحه ، وسقاية زمزم ، والرفادة[1] ، والندوة التي يجتمعون فيها للمشورة والرأي ، واللواء[2] في الحرب ، فحاز شرف مكة كله .

وتنبّل[3] في أولاده عبد مناف ، وكان

---

(١) الرفادة : طعام ، كانت قريش تجمع كل عام لأهل الموسم ويقولون هم أضياف الله تعالى .

(٢) العلم دون الراية .

(٣) كان ذا نبل وذكاء وشرف .

هاشم أكبر أبناء والده عبد مناف ، وكان كبير قومه ، وكانت عنده الرفادة والسقاية ، وهو والد عبد المطلب : جدّ الرسول ﷺ ، وقد ولى السقاية والرفادة بعد عمه المطلب بن عبد مناف ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبّه قومه .

وسمّى أولاد فهر بن مالك « قريشاً » ، وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء فاشتهرت هذه القبيلة بـ « قريش » وأقرّ أهل العرب كلهم بعلو نسب قريش ، والسيادة ، وفصاحة اللغة ، ونصاعة[1] البيان ، وكرم الأخلاق ، والشجاعة ، وصار ذلك مثلا ، لا يقبل نقاشاً ولا جدلا .

---

(١) صفاء ووضوح .

ظهور الوثنية في مكة وقريش

وبقيت قريش متمسكة بدين ابراهيم الخليل ، وبدين جدّها اسماعيل ، متمسكة بعقيدة التوحيد ، وبعبادة الله وحده ، حتى نشأ فيهم عمرو بن لحيّ ، فكان اول من غيّر دين اسماعيل ، فنصب الأوثان ، وأحدث في الحيوانات من التعظيم والتسييب[1] والتحريم ما لم يأذن به الله ، ولم تعرفه شريعة ابراهيم ، وكان قد خرج من مكة الى الشام ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، ففُتن بها ، وجلب بعضها الى مكة ، فنصبها ، وأمر الناس بعبادتها وتعظيمها .

وتدرّج بعضهم من تعظيم حجارة الحرم

---

(١) التسييبَ هو نذر للآلهة فتُترك ولا تُركب

التي كانوا يحملونها معهم اذا ظعنوا[1] من مكة ، تعظيماً للحرم ، ومحافظة على ذكراه ، الى أن صاروا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم .

حادثة الفيل

ووقع حادث عظيم ، كان دليلا على ظهور حادث أكبر ، وعلى أن الله يريد بالعرب خيراً ، وأن للكعبة شأناً ليس لغيرها من بيوت الدنيا .

وكان من خبره أن أبرهة الأشرم عامل النجاشي (ملك الحبشة) على اليمن بنى بـ « صنعاء » كنيسة عظيمة ، سمّاها « القُلَّيْس » ، وأراد أن يصرف اليها حج العرب وغار على

---

(١) رحلوا .

الكعبة أن تكون مثابة للناس ، يشدّون اليها الرحال ، ويأتون من كل فجّ عميق ، وأراد أن يكون هذا المكان لكنيسته .

وعزّ ذلك على العرب الذين رُضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها ، لا يعدلون بها بيتا ، ولا يرون عنها بديلا ، وشغلهم ذلك ، وتحدّثوا به ، فخرج كنانى ، ودخل الكنيسة وأحدث فيها ، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ الى البيت حتى يهدمه .

ثم سار وخرج معه بالفيل ، وتسامعت به العرب ، فنزل عليهم كالصاعقة ، وأعظموه وفزعوا له ، وأرادوا كفّه عن ذلك ومحاربته ، فرأوا أن لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده ، فوكلوا الأمر الى الله تعالى ، وكانوا على ثقة

بأنَ للبيت ربّاً سيحميه ، يدلّ على ذلك ما دار بين سيد قريش – عبد المطلب ، جدّ الرسول ﷺ – وأبرهة ، من حوار ، وقد أصاب له أبرهة مأتى بعير ، فاستؤذن له عليه ، وقد أعظمه أبرهة ، ونزل له عن سريره ، فأجلسه معه ، وسأله عن حاجته ، فقال : حاجتي أن يردّ عليّ الملك مأتى بعير أصابها لي .

فلما قال له ذلك ، زهد فيه الملك واستهان به ، وقال : أتكلمني في مأتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه ؟ .

قال له عبد المطلب : اني أنا رب الابل ، وان للبيت ربا سيمنعه .

قال : ما كان ليمتنع مني .

قال : أنت وذاك .

وانحازت[١] قريش الى شعف[٢] الجبال والشعاب ، تخوّفاً عليهم من معرة[٣] الجيش ، ينظرون ماذا سيصنع الله بمن اعتدى على حرمته ، وقام عبد المطلب ومعه نفر من قريش ، فأخذوا بحلقة باب الكعبة ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنوده .

وأصبح أبرهة متهيئاً لدخول مكة ، وهو مجمع لهدم البيت ، وهيأ فيله ، وكان

---

(١) لجأت وأوت .

(٢) جمع شعفة : رأس الجبل .

(٣) معرة الجيش أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زرعهم شيئا بغير علم ، أو يحدثوا تلفا .

اسم الفيل « محمودا » وبرك الفيل في طريق مكة ، وضربوا الفيل ليقوم ، فأبى ، ووجّهوه راجعاً الى اليمن فقام يهرول .

هناك أرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر ، مع كل طائر منها أحجار يحملها ، لا تصيب منهم أحداً الاّ هلك ، وخرج أهل الحبشة هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاؤوا ، وخرجوا يتساقطون بكل طريق ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، تسقط أزامله أنملة أنملة ، حتى قدموا به « صنعاء » ، فمات شر ميتة .

وذلك ما حكاه القرآن يقول : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً

أبابيل[١] ، ترميهم بحجارة من سجّيل[٢]، فجعلهم كعصف[٣] ماكول[٤] » .

فلما رد الله الحبشة من مكة ، وأصابهم ما أصاب ، أعظمت العرب قريشاً ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم العدوّ .

واستعظم العرب هذا الحادث ، وكان جديراً بذلك ، فأرّخوا به ، وقالوا : وقع هذا في عام الفيل ، وولد فلان في عام الفيل ، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من

---

(١) الأبابيل : الجماعات .
(٢) السجّيل : الشديد الصلب .
(٣) ورق الزرع .
(٤) سورة الفيل : ١ - ٥ .

السنين ، وعام الفيل يصادف سنة ٥٧٠ م .

عبد الله وآمنة

وكان لعبد المطلب – سيد قريش – عشرة أبناء ، وعبد الله واسطة العقد ، وزوّجه أبوه « آمنة » بنت وهب سيد بني زهرة ، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً .

ولم يلبث عبد الله أن مات – وأم رسول الله ﷺ – حامل به – وقد رأت من الآثار والآيات ما يدلّ أن لابنها شأناً .

ولادته الكريمة ونسبه الزكي

وولد رسول الله ﷺ ، يوم الاثنين : اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ،

عام الفيل (٥٧٠ المسيحي) ، فكان أسعد يوم طلعت فيه الشمس .

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن معدّ بن عدنان ، وينتهي نسب عدنان الى سيدنا اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام .

فلما وضعته أمه ﷺ أرسلت الى جده : عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام ، فأتاه ، فنظر اليه ، وحمله ، ودخل به الكعبة ، وقام يدعو الله ، ويحمده ، وسمّاه محمّداً ، وكان هذا الاسم غريباً ، فتعجّب منه العرب .

رضاعته ﷺ

والتمس عبد المطلب لحفيده اليتيم ، الذي كان أحب أولاده اليه مرضعاً من البادية على عادة العرب ، وأدركت حليمةَ السعديّةَ هذه السعادةُ ، وكانت خرجت من بلدها تلتمس الرضعاء وكان العام عام جدب ، وهم في ضيق وشدة ، وعرض رسول الله ﷺ على جميع المراضع فزهدن فيه ، وذلك لأنهن كن يرجون المعروف من أبي الصبيّ ، فقلن : يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجدّه ؟ .

وهكذا فعلت حليمة ، فانصرفت عنه أول مرة ، ثم انعطف قلبها عليه ، وألهمها الله حبه ، وأَخْذَهَ ، ولم تكن وجدت غيره ،

فرجعت اليه فأخذته ، وذهبت به الى رحلها ولمست البركة بيدها ، فكان لكل شيء في رحلها شأن غير الشأن ، ورأت البركة في اللبان[1] والألبان[2] ، والشارف[3] والأتان[4] ، وكل يقول : لقد أخذت يا حليمة نسمة مباركة ، وحسدتها صواحبها .

ولم تزل تتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان في بني سعد ، وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، وقدمت به ﷺ ، على أمه ، وطلبت أن تتركه عندها

---

(١) اللبان بفتح اللام : الصدر أو ما بين الثديين .

(٢) جمع لبن .

(٣) الناقة المسنة الهرمة ، ج شرف بضم الأول وفتح الثاني مع التشديد .

(٤) الحمارة ، ج أتن بضمتين .

بعض الوقت ، فردّته اليها .

وجاءه ملكان ، وهو في بني سعد ، فشقا بطنه ، واستخرجا من قلبه علقة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا قلبه ، حتى أنقياه ، وردّاه كما كان .

ورعى رسول الله ﷺ الغنم مع اخوته من الرضاعة ، ونشأ على البساطة والفطرة ، وحياة البادية السليمة ، واللغة الفصيحة ، التي اشتهر بها بنو سعد بن بكر ، وكان أليفاً ودودا ، أحبه اخوته وأحبهم .

ثم عاد الى أمه وجدّه ، وقد أنبتَهُ الله نباتاً حسنا .

وفاة آمنة وعبد المطلب

فلما بلغ ست سنين ، توفيت آمنة بـ

« الأبواء » بين مكة والمدينة ، فكان مع جده ، وكان به حفيًّا ، يجلسه على فراشه في ظل الكعبة ويلاطفه .

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين مات عبد المطلب .

مع عمّه أبي طالب

فكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب ، وهو أخو عبد الله من أب وأم ، وكان عبد المطلب يوصيه به ، فكان اليه ومعه ، وكان أرفق به وأكثر حدباً (١) عليه من أبنائه .

---

(١) عطفاً عليه .

التربية الآلهية

وشب رسول الله ﷺ محفوظاً من الله تعالى ، بعيداً من أقذار الجاهلية وعاداتها ، فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأشدهم حياء ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والبذاءة ، حتى ما أسموه في قومه الاّ « الأمين » وكان واصلا للرحم ، حاملا لما يثقل كواهل الناس ، مكرماً للضيف ، عوناً على البر والتقوى ، وكان يأكل من نتيجة عمله ، ويقنع بالقوت .

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربع أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار بين قريش وبين قيس ، وشهد رسول الله ﷺ بعض

أيامه ، وكان ينبّل[1] على أعمامه وبذلك عرف الحرب ، وعرف الفروسية والفتوة .

زواجه ﷺ من خديجة

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة ، تزّوج خديجة بنت خويلد[2] وهي من سيدات قريش وفضليات النساء ، رجاحة عقل ، وكرم أخلاق ، وسعة مال ، وكانت أرملة ، توفي زوجها أبو هالة ، وكانت اذ ذاك في الأربعين من سنها ، ورسول الله ﷺ في الخامسة والعشرين من عمره .

وكانت خديجة امرأة تاجرة تستأجر

(١) ينبّل : يعنى كان يردّ عليهم نبل عدوّهم اذا ما رماهم بها .
(٢) خويلد : بضم الأول وفتح الثاني ، وسكون الثالث وكسر الرابع .

الرجال في مالها ، وتضاربهم[1] بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجارا ، وقد كانت اختبرت صدق حديث رسول الله ﷺ وكرم أخلاقه ، ونصيحته ، حين خرج في مال لها الى الشام تاجرا ، وبلغها من كبر شأنه في هذه الرحلة ، فعرضت عليه نفسها ، وكانت قد رفضت طلب كثير من أشراف قريش ، وخطبها اليه عمه حمزة ، وخطب أبو طالب الخطبة ، فكان الزواج .

وكانت أول امرأة تزوّجها رسول الله ﷺ ، وولدت له اولاده كلهم الا ابراهيم .

---

(١) المضاربة هي أن تعطى مالا لمن يتجر فيه بسهم معلوم من الربح .

قصة بنيان الكعبة ودرء فتنة عظيمة

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وقد أرادوا ذلك ليسقّفوها ، وكانت حجارة بعضها على بعض ، من غير طين يركب بعضها ببعض ، وكانت فوق القامة ، وكان لا بد من هدم وبناء جديد .

فلما بلغ البنيان موضع الركن ، اختصموا في الحجر الأسود ، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى ، وكل قبيلة تريد أن يكون لها هذا الشرف ، حتى آل الأمر الى الحرب ، وكانت في أهون من هذا بكثير في الجاهلية .

وأعدّوا للقتال ، وقرّبت بنو عبد الدار[1] جفنة[2] مملوءة دما ، وتعاقدوا هم وبنو عديّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة .

وكانت آية الموت والشر ، ومكثت قريش على ذلك أياما ، ثم اتفقوا على أن أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينهم ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد.

ودعا رسول الله ﷺ بثوب ، وأخذ الحجر ، ووضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه

---

(١) قبيلة من قبائل قريش .

(٢) القصعة الكبيرة .

جميعا ، ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

وهكذا درأ[1] رسول الله ﷺ الحرب عن قريش ، بحكمة ليست فوقها حكمة .

حلف الفضول

وشهد رسول الله ﷺ حلف الفضول ، وكان أكرم حلف سمع به ، وأشرفه في العرب ، وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل أحد أشراف قريش ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى[2] عليه الزبيدي أشراف قريش ،

---

(١) دفع .

(٢) استعان بهم واستنصرهم .

فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل لمكانته ، وانتهروه ، واستغاث الزبيدي أهل مكة ، واستعان بكل ذي مروءة .

وهاجت الغيرة في رجال من ذوي المروءة والفتوة ، فاجتمعوا في دار عبد الله ابن جُدعان ، فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا ، وتعاهدوا بالله ، ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدي اليه حقه ، فسمّت العرب ذلك الحلف « حلف الفضول » وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر ، ثم مشوا الى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها اليه .

وكان رسول الله ﷺ مغتبطاً بهذا الحلف ، متمسكاً به ، حتى بعد البعثة يقول : « لقد

شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الاسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردّوا الفضول على أهلها ، وأن لا يعزّ [١] ظالم مظلوما .

وكان من حكمة الله تعالى وتربيته أن نشأ رسول الله ﷺ أميا ، لا يقرأ ولا يكتب ، فكان أبعد عن تهمة الأعداء وظنة المغتربين ، والى ذلك أشار القرآن بقوله :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطّه بيمينك اذاً لَاَرْتابَ المبطلون [٢] » .

وقد لقبه القرآن بالأميّ فقال : « الذين يتَّبعون الرسول النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل [٣] » .

---

(١) يغلب .

(٢) سورة العنكبوت – ١٨ .

(٣) سورة الأعراف – ١٥٧ .

بعد البعثة

تباشير الصبح وطلائع السعادة

وأتم رسول الله ﷺ أربعين سنة من عمره ، وظهرت تباشير[1] الصبح وطلائع السعادة ، وآن أوان البعثة ، وتلك سنة الله اذا اشتد الظلام وطالت الشقوة .

وبلغ قلق رسول الله ﷺ مما كان يراه ذروتَه ، كأن حادياً يحدوه ، فحُبّب اليه الخلاء ، فلم يكن شيء أحبّ اليه من أن يخلو وحده ، وكان يخرج من مكة ، ويبعد حتى

---

(١) أوائل كل شيء .

تحسر[1] عنه البيوت ، ويفضي الى شعاب مكة وبطونها وأوديتها ، فلا يمرّ بحجر ولا شجر الاّ قال : السلام عليك يا رسول الله ، ويلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى الاّ الشجر والحجارة.

وكان أول ما بدىء به ، الرؤيا الصادقة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح[2] .

في غار حراء

وكان يخلو غالباً بغار حراء ، فيمكث فيها ليالي متواليات ، وكان يتزوّد لذلك ، وكان يتعبد ويدعو على الطريقة الابراهمية

(١) تتوارى .

(٢) ضوء الصبح .

الحنيفية والفطرة السليمة المنيبة الى الله .

مبعثه ﷺ

وكان كذلك في احدى المرات اذ جاءه اليوم الموعود لبعثته ، وكان ذلك في رمضان – ١٧ من رمضان في السنة الحادية والأربعين من ميلاده ، ٦/أغسطس ٦١٠ م–وهو بـ « حراء » فجاءه الملك ، فقال : « اقرأ » ، فقال : ما أنا بقارىء ، قال رسول الله ﷺ : فأخذني ، فغطّني ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ » فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني حتى الثانية بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ » ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ،

ثم أرسلني فقال :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم[1] » .

وكان ذلك أول يوم من أيام النبوة ، وأول وحي من القرآن .

في بيت خديجة

وفزع منه رسول الله ﷺ ، فانه لم يعهده ولم يسمع به ، وقد طالت الفترة ، وعهدُ العرب بالنبوة والأنبياء بعيد ، وخاف على نفسه ، ورجع الى بيته ترتعد فرائصه[2] ،

---

(١) سورة العلق : ١ — ٥ .

(٢) فرائص : جمع فريصة ، وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف . ترتعش وترتعد عند الفزع .

وقال : زمّلوني[1] ، زمّلوني ، لقد خشيت على نفسي .

وسألت خديجة عن السبب ، فقصّ عليها القصة ، وكانت عاقلة فاضلة ، سمعت بالنبوة والأنبياء والملائكة ، وكانت تزور ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصّر ، وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والانجيل ، وكانت تنكر من أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السليمة والأذهان المستقيمة .

وكانت من أعرف الناس بأخلاق رسول الله ﷺ ، لمكانها منه ، وعشرتها له ، واطلاعها على السرّ والعلانية ، وقد رأت من أخلاق رسول الله ﷺ وشمائله ما

(١) أي لفّوني في الثياب .

يؤكد أنه الرجل المُوَفَّق المؤيّد من الله ، المصطفى من خلقه ، المرضي في سيرته وسلوكه وأن من كانت هذه أخلاقه وسيرته ، لا يخاف عليه من لمة[1] من الشيطان ، أو أن يكون به مسّ من الجنّ ، وأن ذلك يتنافى مع ما عرفته من حكمة الله ورأفته وسننه في خلقه ، فقالت في ثقة وايمان وفي قوة وتأكيد :

« كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكلّ[2] ، وتكسب المعدوم[3] ، وتقري[4] الضيف وتعين على نوائب الحق » .

---

(١) هي الهمة والخطرة تقع في القلب .

(٢) الكلّ . الثقل .

(٣) أي تكسب الناس ما يعدمونه مما يحتاجون اليه .

(٤) أي تهيىء له طعامه ونزله .

ورأت أن تستعين في ذلك بابن عمها العالم « ورقة » بن نوفل ، فانطلقت برسول الله ﷺ اليه .

وأخبر رسول الله ﷺ ورقة خبر ما رأى ، فقال ورقة : والذي نفسي بيده انك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر (١) الذي جاء موسى ، وان قومك سيكذبونك ، ويؤذونك ، ويخرجونك ، ويقاتلونك .

وتعجب رسول الله ﷺ حين قال ورقة : انهم سيخرجونك ، لأنه كان يعرف منزلته

---

(١) الناموس في الأصل صاحب سرّ الرجل في خيره وشره ، فعبّر به عن الملك الموكل بالوحي ؛ الذي جاء بالوحي اليه ﷺ .

عند قريش ، فلا ينادونه ولا يخاطبونه الا بـ « الصادق » و بـ « الأمين » فقال متعجباً : أو مخرجيّهم ؟ .

قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به ، الا عاداه الناس وحاربوه ، وان أدركت ذلك اليوم ، وطالت بي الحياة ، نصرتك نصراً قويا .

وفتر الوحي زمانا ، ثم تتابع ، وبدأ القرآن ينزل .

اسلام خديجة وأخلاقها

وآمنت به خديجة ، فكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وكانت بجواره تؤازره[1] ، وتثبّته ، وتخفف عنه ، وتهوّن

---

(١) تعاونه .

عليه أمر الناس .

اسلام علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة

ثم أسلم علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وهو يومئذ ابن عشر سنين ، وكان في حجرِ رسول الله – ﷺ – قبل الاسلام ، أخذَه من أبي طالب في أيام الضائقة[1] ، وضمّه اليه .

وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله – ﷺ – وكان قد تبنّاه رسول الله – ﷺ –

فكان اسلام هؤلاء شهادة أقربِ الناس اليه ، وأعرفهم به ، وبصدقه ، واخلاصه ، وحسن سيرته ، وأهلُ البيت أدرى بما فيه .

---

(١) الشدة والقحط .

اسلام أبي بكر بن أبي قحافة وفضله في الدعوة الى الاسلام

وأسلم أبو بكر بن أبي قحافة ، وكانت له منزلة في قريش ، لعقله ومروءته واعتداله ، وأظهر اسلامه ، وقد كان رجلاً محبّباً سهلا ، عالماً بأنساب قريش وبأخبارها ، وكان تاجرا ، ذا خلق ومعروف ، فجعل يدعو الى الله وإلى الاسلام من وثق به من قومه ، ممن يغشاه [1] ويجلس اليه .

اسلام أشراف من قريش

وأسلم بدعوته أشراف من قريش ، لهم مكانة وسؤدد ، منهم عثمان بن عفان ،

---

(١) يأتي اليه .

وزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، فجاء بهم الى رسول الله – ﷺ – فأسلموا .

وتلاهم رجال من قريش ، لهم شرف ومكانة ، منهم أبو عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسعيد ابن زيد ، وخباب بن الأرت ، وعبد الله ابن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وصهيب ، وغيرهم ، رضي الله عنهم .

ودخل الناس في الاسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الاسلام بمكة وتُحدث به .

الدعوة جهاراً على جبل « الصفا »

وكان رسول الله - ﷺ - يخفي أمره ، ومضى على ذلك ثلاث سنين ثم أمره الله تعالى باظهار دينه ، وقال : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين[1] » ، وقال : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين[2] » ، و « قل : اني أنا النذير المبين[3] » .

فخرج - ﷺ - وصعد على جبل « الصفا » ، ونادى بأعلى صوته : « يا صباحاه » ، وكانت صيحة معروفة مألوفة ،

(١) سورة الحجر - ٩٤ .
(٢) سورة الشعراء - ٢١٤ ، ٢١٥ .
(٣) سورة الحجر - ٨٩ .

كلما أحسّ انسان بخطر عدوّ ، يغير على بلد ، أو على قبيلة ، على غفلة منها نادى : « يا صباحاه » ، فلم تتأخر قريش في تلبية هذا النداء ، واجتمعوا اليه ، بين رجل يجيء اليه ، وبين رجل يبعث اليه رسوله .

فقال رسول الله — ﷺ — : « يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ » .

كان العرب واقعيين عمليين ، انهم رأوا رجلا جرّبوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وينظر الى ما وراءه ، وهم لا يرون إلا ما هو أمامهم ، فهداهم ذكاؤهم وانصافهم الى تصديق هذا

المخبر الأمين الصادق ، فقالوا : نعم ، هنالك قال رسول الله – ﷺ – : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

فسكت القوم ، ولكن أبا لهب قال : تبّاً[1] لك سائر اليوم ، أما دعوتنا الاّ لهذا ؟ .

اظهار قومه العداوة له وحدب أبي طالب عليه

ولما أظهر رسول الله – ﷺ – الدعوة للاسلام ، وصدع بالحق كما أمره الله تعالى ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردّوا عليه حتى ذكر آلهتهم ، وعابها ، فلما فعل ذلك ، أعظموه وأجمعوا خلافه وعداوته .

وحدب على رسول الله – ﷺ – عمّه

(١) هلاكاً لك وخسرانا .

أبو طالب ، ومنعه ، وقام دونه ، ومضى رسول الله - ﷺ - في دعوته وصدعه بالحق ، لا يرده عنه شيء ، ومضى أبو طالب يحدب عليه ، ويذود[1] عنه .

فلما طال ذلك ، مشى رجال من قريش الى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب ! ان ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فاما أن تكفّه عنا واما أن تخلّي بيننا وبينه ، فانك على مثل ما نحن عليه ، من دين وعقيدة .

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقا ، وردهم رداً جميلا ، فانصرفوا عنه .

---

(١) يدفع عنه الأذى .

وأكثرت قريش ذكر رسول الله - ﷺ - وحضّ بعضهم بعضاً عليه ، ومشوا الى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا : يا أبا طالب ! ان لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد رجوناك أن تنهى ابن أخيك ، فلم تفعل ، فإنا والله لا نصبر أكثر مما صبرنا ، على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فاما تكفّه عنا ، أو اما أن ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً باسلام رسول الله ﷺ - لهم ، فبعث الى رسول الله - ﷺ - .

فقال له : يا ابن أخي ! ان قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي : كذا وكذا ، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق .

لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري

وظن رسول الله - ﷺ - أن أبا طالب قد اضطرب في أمره ، وضعف عن نصرته والقيام معه .

فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته .

واستعبر [1] رسول الله - ﷺ - فبكى ،

---

(١) أي دمعت عين رسول الله ﷺ .

ثم قام .

فلما ولّى ، ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله - ﷺ - فقال : اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

تعذيب قريش للمسلمين

ومضى رسول الله - ﷺ - يدعو الى الله ، ويئست قريش منه ، ومن أبي طالب ، ونزل غضبهم على من كان أسلم من أبناء قبائلهم ، وليس لهم من يمنعهم .

فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم ، بالضرب ، والجوع ، والعطش ، وبرمضاء

مكة اذا اشتدّ الحر .

وكان بلال الحبشي – وقد أسلم – يخرجه مولاه « أمية » بن خلف ، اذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله ، لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول – وهو في ذلك البلاء – أحد ، أحد .

فمرّ به أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – فأعطى أمية غلاماً أسود ، أجلد منه وأقوى ، وأخذ منه بلالا ، وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمّار ابن ياسر وبأبيه وأمه – وكانوا أهل بيت اسلام – اذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم

برمضاء[1] مكة ، فيمر بهم رسول الله - ﷺ - ويقول : صبراً يا آل ياسر ! موعدكم الجنة ، فأما أمه فقتلوها ، وهي تأبى الا الاسلام .

وكان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالا وتيها ، وكانت أمه غنية كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب .

وبلغ مصعب بن عمير أن رسول الله - ﷺ - يدعو الى الاسلام ، في دار « ارقم ابن أبي الأرقم ، فدخل عليه ، فأسلم وصدّق به ، فخرج ، فكتم اسلامه خوفاً من أمه وقومه ، فكان يختلف الى رسول الله - ﷺ - سرّا ، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي ،

(١) الرمل الشديد الحر .

فأخبر أمه وقومه ، فأخذوه وحبسوه ، فلم يزل محبوسا ، حتى خرج الى أرض الحبشة في الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين ، حين رجعوا ، فرجع متغيراً الحال قد حرج – يعنى غلظ – فكفّت أمه عنه من العذل .

وكان بعض المسلمين قد دخل في جوار بعض المشركين ، من أشراف قريش ورؤسائهم وكانوا يمنعونهم ، ويحمونهم ، وكان عثمان ابن مظعون قد دخل في جوار الوليد بن المغيرة ، ثم أبت غيرته ذلك ، فردّ عليه جواره ، وكان وفيّاً كريم الجوار ، وقال : قد أحببت أن لا أستجير بغير الله ، ودار بينه وبين أحد المشركين حديث أغضب المشرك ، فقام اليه

ولطم عينه ، فخضّرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ذلك ، فقال : أما والله يا ابن أخي ! ان كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة ، قال عثمان : بل والله ان عيني الصحيحة لفقيرة الى مثل ما أصاب أختها في الله ، واني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس ! .

محاربة قريش لرسول الله ﷺ وتفننهم في الايذاء

فلما لم تلق قريش نجاحاً في صرف هؤلاء الفتيان الذين أسلموا ، عن دينهم ، ولم يلن رسول الله - ﷺ - ولم يحابهم ، اشتد عليهم ذلك ، فأغروا برسول الله - ﷺ -

سفهاءهم ، فكذبوه ، وآذوه ، ورموه بالسحر والشعر ، والكهانة والجنون ، وتفنّنوا في ايذاء رسول الله - ﷺ - وذهبوا فيه كل مذهب .

وكان أشرافهم مجتمعين يوماً في الحجر ، اذ طلع عليهم رسول الله - ﷺ - ومر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، وعادوا بذلك ثلاث مرات ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأسكت القوم ، فلا حراك بهم ، وصاروا يلاطفونه بالقول .

فلما كان من الغد ، وهم في مقامهم ، طلع عليهم رسول الله - ﷺ - فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر - رضي

الله عنه – دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ؟ ! فانصرفوا عنه ، ورجع أبو بكر يومئذ ، وقد صدعوا فرق رأسه ، وقد جرّوه بلحيته .

وخرج رسول الله – ﷺ – يوماً فلم يلقه أحد من الناس ، إلاّ كذبه وآذاه ، لا حر ولا عبد ، فرجع رسول الله – ﷺ – الى منزله ، فتدثر[1] من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه :

« يا أيها المدّثّر قم فأنذر » .

ما فعل كفار قريش بأبي بكر ؟ !

وقام أبو بكر يوماً في الناس ، يدعو الى

(١) تدثر ، وادّثر (بالثوب) اشتمل وتلفف به .

الله وإلى رسوله ، وثار المشركون على أبي بكر ، فوطىء ، وضرب ضرباً شديدا ، وجعل عقبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين[1] يحرّفهما لوجهه حتى ما يعرف وجهه من أنفه .

وحملت بنو تيم أبا بكر ، وهم لا يشكون في موته ، وتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله - ﷺ - فمسوا منه بألسنتهم ، وعذلوه ، ودنت منه أم جميل ، وهي ممن أسلم ، فسألها عن رسول الله - ﷺ - فقالت : سالم صالح قال : فان لله عليّ ألاّ أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله - ﷺ - فأمهلتا حتى اذا

(١) خصف النعل : أي أطبق عليها مثلها وخرزها بالمخصف .

هدأت الرِجل وَسكن الناس خرجتا به يتكىء عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله – ﷺ – ، ورقّ له رسول الله – ﷺ – رقة شديدة ، فدعا رسول الله – ﷺ – لأمه ، ودعاها الى الله ، فأسلمت .

احتيار قريش في وصف رسول الله ﷺ

وحارت قريش في أمْر رسول الله – ﷺ – بماذا يصفونه ، وكيف يحولون بينه ، وبين من يقصده ، أو يستمع اليه ، من الوافدين من بعيد ، واجتمعوا الى الوليد ابن المغيرة – وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم – فقال لهم : يا معشر قريش ! انه قد حضر هذا الموسم ، وان وفود العرب

ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويردَ قولكم بعضه بعضا ، ودار بينهم حديث طويل وأخذ وردّ .

ولم يرض الوليد بما عرضوه ، ونقضه ، فرجعوا اليه ، وقالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ ، قال : ان أقرب القول فيه : لأن تقولوا : ساحر جاء بسحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس ، حين قدموا الموسم ، لا يمر أحد إلاّ حذّروه إياه ، وذكروا له أمره .

قسوة قريش في ايذاء رسول الله – ﷺ – ومبالغتهم في ذلك

وتفنّن قريش ، وقسوا في إيذاء رسول الله – ﷺ – فلم يرعوا فيه قرابة ولا رحما ، وتخطّوا حدود الانسانية .

فبينا النبي – ﷺ – ساجد – ذات يوم – في المسجد ، وحوله ناس من قريش ، اذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلا [1] جزور ، فقذفه على ظهر النبي – ﷺ – فلم يرفع رأسه ، فجاءت ابنته « فاطمة » – عليها السلام – فأخذته من ظهره ، ودعت على من صنع هذا ، ودعا عليهم النبي – ﷺ – .

وَبينا هو – ﷺ – يصلي في حجر الكعبة ،

(١) السلى : جلدة يكون ضمنها الولد في بطن أمه .

اذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديدا ، فأخذ أبو بكر بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ؟ ! .

اسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

ومر أبو جهل برسول الله - ﷺ - ذات يوم ، عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، فلم يكلمه رسول الله - ﷺ - فانصرف عنه .

ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً [1] قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان أعزّ فتى في قريش ، وأشد شكيمةً [2] ،

(١) متقلدا .

(٢) أي أنفةً وإباءً .

فأخبرته مولاة عبد الله بن جدعان بما جرى لرسول الله – ﷺ – فاحتمل حمزة الغضب ، ودخل المسجد ورأى أبا جهل جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى اذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه بها ، فشجّه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه ؟ أقول ما يقول ، فسكت أبو جهل ، وأسلم حمزة ، وعز ذلك على قريش ، لمكانته وشجاعته .

ما دار بين عتبة
وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله – ﷺ – يزيدون ويكثرون ، استأذن عتبة ابن ربيعة قريشا ، أن يأتي رسول الله – ﷺ –

فيكلمه ويعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها ، فيعطونها ، ويكف عنهم ، وأذنت له قريش ، واستخلفته .

وجاء عتبة رسول الله – ﷺ – فجلس اليه ، وقال : يا ابن أخي ! انك منا حيث قد علمت ، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبْت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال رسول الله – ﷺ – : قل يا أبا الوليد ! اسمع .

قال يا ابن أخي : ان كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا ، سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وان كنت تريد به مُلكا ، ملكناك علينا ، وان كان هذا الذي يأتيك رئيّا [1] ، تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك ، طلبنا لك أطبّاء ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

فلما فرغ عتبة ، قال له رسول الله - ﷺ - أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال : فاسمع منّي .

قال : افعل .

فقرأ رسول الله - ﷺ - آيات من سورة « فصّلت » الى السجدة ، فلما سمع عنه

---

(١) رئيا . ما يتراءى للانسان من الجن .

عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليها ، يسمع منه ، فلما انتهى رسول الله – ﷺ – الى السجدة منها ، سجد ، ثم قال :

« قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس اليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ ! ، قال : ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعوني ، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتذلوه ، قالوا : سحرك والله يا أبا

الوليد بلسانه ، قال هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

هجرة المسلمين الى الحبشة :

ولما رأى رسول الله - ﷺ - ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا ، لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فَرَجاً مما أنتم فيه .

فخرجت عند ذلك جماعة من المسلمين الى أرض الحبشة ، فكانت أول هجرة في الاسلام وكانوا عشرة رجال ، أمّروا عليهم عثمان بن مظعون - رضي الله عنه - .

ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون ، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، منهم من خرج بأهله ، ومنهم من خرج بنفسه ، وكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلا .

تعقّب قريش للمسلمين :

ولما رأت قريش أن هؤلاء قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، بعثوا عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته [1] ، مما يُسْتَطرف [2] من متاع مكة ، وقدما على

---

(١) البطارقة : جمع بطريق ، وهو القائد الحاذق بالحرب .

(٢) يستطرف : يُعَدّ طريفا .

النجاشي ، وقد استمالا البطارقة ، وأرضياهم بهداياهم وتكلما في مجلس الملك ، فقالا : انه لجأ الى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بَعَثَنا إليك أشراف قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردّوهم اليهم ، فهم أبصر بهم ، وأقرب اليهم ، وقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما .

فغضب النجاشي ، وأبى أن يقبل كلامهم ، ويسلم من لجأ إليه وإلى بلاده ، وحلف بالله ، وأرسل إلى المسلمين فدعاهم ، ودعا

أساقفتهم [1] ، وقال للمسلمين : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ؟ ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟ .

تصوير جعفر بن أبي طالب للجاهلية ، وتعريفه بالاسلام :

وقام جعفر بن أبي طالب – وهو ابن عمّ رسول الله – ﷺ – فقال له :

« أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيىء الجوار ، ويأكل القويّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسَبه وصدقه

---

(١) الأساقفة : علماء النصارى ، والواحد : الأسقف .

وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، — فعدّد عليه أمور الاسلام — فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردّونا إلى عبادة

الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل « من الخبائث » .

« فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظْلَم عندك أيها الملك ! »

وسمع النجاشي كل ذلك في هدوء ووقار ، ثم قال : هل معك ما جاء به صاحبكم عن الله من شيء ؟ .

قال جعفر : نعم .

قال النجاشي : فاقرأه عليّ .

فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي ، حتى اخضلّت [1] لحيته ،

(١) اخضلت : ابتلت .

وبكى أساقفته حتى أخضلوا [١] مصاحفهم .

خيبة وفد قريش :

ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ، يخرج من مشكاة واحدة ، ثم أقبل على رسولَيْ قريش ، فقال : انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكم .

وغدا عمرو بن العاص على النجاشي من الغد ، وقال له : أيها الملك ! إنهم ليقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيما ، فأقبل الملك على المسلمين ، فقال : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

قال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه ما جاء به نبينا - ﷺ - : هو عبد الله ،

(١) بلّوا .

ورسوله ، وروحه ، وكلمته ، ألقاها الى مريم العذراء [1] البتول [2] ، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت مقدارَ هذا العودِ .

ورد المسلمين رداً كريما ، وأمّنهم ، وخرجا من عنده مقبوحَيْن .

إسلام عمر بن الخطاب :

وأيّد الله الاسلام والمسلمين ، بإسلام عمر بن الخطاب العدويّ القرشيّ ، وكان رجلاً مهيباً ، ذا قوه وشكيمة ، وكان رسول

(١) هي الجارية التي لم يمسّها رجل .
(٢) هي المنقطعة عن الرجال لا حاجة لها فيهم .

الله — ﷺ — حريصاً على إسلامه ، يدعو الله لذلك .

وكان من خبر إسلامه أن أخته « فاطمة » بنت الخطاب أسلمت ، وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وكانا يخفيان إسلامهما ، من عمر ، لهيبته وشدته على الإسلام والمسلمين ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة ، يقرئها القرآن .

فخرج عمر يوماً متوشّحاً سيفه ، يريد رسول الله — ﷺ — ورهطاً من أصحابه ، قد ذُكِرَ له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا ، فلقيه نُعَيم بن عبد الله — وهو من قومه بني عدي ، وكان قد أسلم — فقال له أين تريد يا عمر ؟ ، قال : أريد محمداً هذا الصابىء ، الذي فرّق

أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبّ آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : لقد غرّتك نفسك يا عمر ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ ، قال عمر : وأي أهل بيتي ؟ .

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطّاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

ورجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأَرَتّ ، معه صحيفة ، فيها « طه » يقرئهما إيّاها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغيّب خباب في مخدع [1] لهم ، وأخذت فاطمة الصحيفة ، وجعلتها

(١) المخدع : البيت الصغير الذي يكون في البيت الكبير .

تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءةَ خبابٍ ، فلما دخل ، قال : ما هذه الهينمة [1] ؟ ، قالا له ما سمعت شيئا ، قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

وبطش عمر بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة ، لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجّها .

فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم قد أسْلَمْنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع ، وتوقّف ، وقال لأخته : أعطيني

---

(١) الهينمة : صوت كلام لا يُفهم .

هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأُونها آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر قارئاً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ، فلما قال ذلك ، طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي ! إنك نجس على شركك . وإنه لا يمسها إلاّ الطاهر .

فقام عمر فاغتسل ، فأعطَتْه الصحيفةَ ، وفيها « طه » فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلامَ وأكرمه ! .

فلما سمع ذلك خباب ، خرج إليه ، وقال له : يا عمر ! والله ، إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيِّه ، فإني سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيّد الإسلام

بأبي الحكم بن هشام (يعني أبا جهل) أو بعمر ابن الخطاب ، فاللّهَ ، اللّهَ يا عمر .

عند ذلك قال له عمر : فدُلَّني يا خباب على محمد ، حتى آتيه فأسلم ، وقال خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه ، فتوشّحه ، ثم عمد إلى رسول الله — ﷺ — وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله — ﷺ — فنظر من خِلَل الباب ، فرآه متوشحاً السيفَ ، فرجع إلى رسول الله — ﷺ — وهو فَزِعٌ ، فقال : يا رسول الله ! هذا عمر بن الخطاب ، متوشحاً السيف فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فان كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان

جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله – ﷺ – ائذن له ، فأذن له الرجل .

ونهض إليه رسول الله – ﷺ – حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته [١] ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله ! جئتك لأؤمن بالله ، وبرسوله ، وبما جاء من عند الله .

قال : فكبّر رسول الله – ﷺ – تكبيرة عرف منها أهل البيت من أصحاب رسول الله – ﷺ – أن عمر قد أسلم .

وعزّ المسلمون في أنفسهم ، حينما أسلم

---

(١) الحجزة : موضع شدّ الازار .

عمر ، وقد أسلم حمزة من قبل .

وأعلن عمر إسلامه ، وشاع ذلك في قريش ، وقاتلوه وقاتلهم ، حتى يئسوا منه .

مقاطعة قريش لبني هاشم والإضراب عنهم :

وجعل الاسلام يفشوا في القبائل ، فاجتمعت قريش ، وائتمروا بينهم ، أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المُطَّلِبِ ، على أن لا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك ، كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا ، وتواثقوا على ذلك ، وعلّقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، توكيداً على أنفسهم .

في شعب أبي طالب :

فلما فعلت ذلك قريش ، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شعبه ، وذلك في سنة سبع من النبوة .

وخرج من بني هاشم أبو لَهَب بن عبد المطلب ، وكان مع قريش .

وأقام بنو هاشم على ذلك حتى جُهِدُوا من ضيق الحصار ، وأكلوا ورق السمر ، وأطفالهم يَتَضَاغَوْن[1] من الجوع ، حتى يُسمع بكاؤهم من بعيد ، وقريش تحول بينهم وبين التجار فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً ، حتى لا يشتروها .

ومكثوا على ذلك ثلاث سنوات ، لا

---

(١) يتضاغون : يتصوتون من الجوع .

يصل إليهم شيء ، إلاّ سرّاً ، ممن أراد صلتهم من قريش ، ورسول الله - ﷺ - على ذلك ، يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وجهاراً ، وبنو هاشم صابرون محتسبون .

نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة :

وقام نفر من قريش ، من أهل المروءة والضمائر ، في مقدمتهم هشام بن عمرو بن ربيعة ، فكرهوا هذا التعاقد الظالم ، وعافته نفوسهم ، وكان هشام رجلاً واصلاً ، وكان ذا شرف في قومه ، فمشى إلى رجال من قريش ، أنس فيهم الرقة والرجولة ، فاستثار حميتهم وإنسانيتهم لنقض الصحيفة ، والخروج من هذا التعاقد الظالم ، ولما كانوا خمسة ،

اجتمعوا وتعاقدوا على نقض الصحيفة ، فلما كانت قريش في أنديتها من غد ، قام زُهَيْر بن أبي أُمَيَّة ، وكانت أمه عَاتِكَةُ بنت عبد المطلب ، وأقبل على الناس .

قال : يا أهل مكة ! أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، لا يُبَاع ولا يُبْتَاع منهم ؟ ، والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة الظالمة .

وتدخّل أبو جهل في الحديث فلم يُفِدْ ، وقام المُطْعِم بن عَدِيّ إلى الصحيفة ليَشُقَّها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك أللهم » ، وكان النبي – ﷺ – قد أخبر بذلك أبا طالب ، ومُزّقت الصحيفة وبطل ما فيها .

وفاة أبي طالب وخَدِيجَة :

ومات أبو طالب وخديجة في عام واحد – العام العاشر من النبوة – وهما من عرفتم من حسن الصحبة والوفاء والنصر والتأييد، ولم يسلم أبو طالب، وتَتَابَعَتْ على رسول الله – ﷺ – المصائبُ.

وقع القرآن في القلوب السليمة :

وقدم الطفيل بن عمرو الدَّوْسِيّ مكة، وكان رجلاً شريفاً، شاعراً لبيباً، فحالت قريش بينه وبين رسول الله، وخوّفوه من الدنوّ إليه، وسماع كلامه، وقالوا : إنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تُكَلِّمَنَّه ولا تَسْمَعَنَّ منه شيئاً.

يقول الطفيل : والله ما زالوا بي حتى أجمعتُ ألاّ أسمع منه شيئا ، ولا أكلمه حتى حشوت في أذني قطناً ، وغدوت إلى المسجد ، فاذا رسول الله - ﷺ - قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلاّ أن يُسمعني بعضَ قوله ، قال فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي ، واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب ، شاعر ، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً ، قبلته ، وإن كان قبيحاً ، تركته .

ودخل الطفيل على رسول الله - ﷺ - في بيته ، وحكى له القصةَ فعرض عليه رسول الله - ﷺ - الاسلامَ ، وتلا عليه

القرآن ، فأسلم ، ورجع إلى قومه داعياً إلى الاسلام ، وأبى أن يساكن أهله حتى يسلموا فدخلوا في الاسلام جميعاً ، ودعا دَوْساً إلى الإسلام ، وفشا الاسلام فيهم .

الخروج إلى الطائف وما لقي فيها من الأذى :

ولما مات أبو طالب ، نال رسول الله - ﷺ - من قريش من الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه قريش في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً .

ولما اشتد أذى قريش ، وانصرافهم عن الاسلام ، وزهدُهم فيه ، خرج رسول الله - ﷺ - إلى الطائف ، يلتمس النصرة من

ثقيف ، وأن يدخلوا في الاسلام .

فلما قدم رسول الله – ﷺ – الطائف ، عمد إلى نفر ، منهم سادة ثقيف وأشرافهم ، فجلس إليهم ، ودعاهم إلى الله ، فكان ردّهم شَرَّ ردٍّ ، واستهزأُوا به – ﷺ – وأَغْرَوا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ، ويصيحون به ، ويرجمونه بالحجارة ، فعمد إلى ظل نخلة ، وهو مكروب ، فجلس فيه ، وكان ما لقي في الطائف أشدّ ما لقيه من المشركين ، وقعد له أهل الطائف صَفَّيْنِ على طريقه ، فلما مرّ ، جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلاّ رموهما بالحجارة ، حتى أَدْمَوه ، وهما تسيلان الدماء ، وفاض قلبه ولسانه بدعاء شكا فيه إلى الله ضعفَ قوته ، وقلّةَ حيلته ،

وهوانَه على الناس ، واستعاذ بالله تعالى وبنصره وتأييده فقال :

« اللهم ! اليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهَّمني ؟ أم الى عدوّ ملّكته أمري ؟ ، إن لم يكن بك غضب عليّ ، فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تُنْزل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

فأرسل الله إليه ملك الجبال ، يستأذنه

في أن يُطْبَق الجبلين اللذين بينهما الطائف ، فقال له رسول الله - ﷺ - بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً .

ولما رآه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وما لقي ، تحرّكت لهما المروءة ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عَدَّاس ، فقالا له : خذ قطفاً من العنب ، فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس وأسلم ، بما سمعه من حديث رسول الله - ﷺ - ورأى من أخلاقه .

وانصرف رسول الله - ﷺ - من الطائف إلى مكة ، وقومه على أشد ما كانوا عليه من خلاف وعداء ، وسخرية واستهزاء .

الاسراء والمعراج وفرض الصلوات :

ثم أُسْرِيَ برسول الله – ﷺ – إلى المسجد الحرام ، فإلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى ما شاء الله من القرب والدنو ، والسير في السماوات ، ومشاهدة الآيات ، والاجتماع بالأنبياء :

« ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى [1] »

فكانت ضيافةً كريمةً من الله ، وتسليةً وجبراً للخاطر ، وتعويضاً عما لقيه في الطائف من الذلة والهوان .

فلما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم

---

(١) سورة النجم : ١٧ ، ١٨ .

الخبر ، فأنكروه ذلك ، واستعظموه ، وكذّبوه ، واستهزأوا ، وأما أبو بكر ، فقال : والله لئن كان قاله ، لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله ، إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

وفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاةً في كل يوم ، وما زال رسول الله يسأله التخفيف ، حتى جعلها الله خمس صلوات في كل يوم وليلة ، من أدّاهنّ إيماناً واحتساباً كان له أجر خمسين صلاة .

عرض رسول الله - ﷺ - نفسه على القبائل :

وبدأ رسول الله - ﷺ - يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الاسلام ، وإلى أن يمنعوه من الأعداء ، ويقول : يا بني فلان ! إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا به ، وتصدقوا به ، وتمنعوني حتى أبيّن عن الله ما بعثني به .

فاذا فرغ رسول الله - ﷺ - من قوله قام أبو لهب ، فقال : يا بني فلان ! إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللاَّت والعُزَّى ، من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن ، الى ما جاء

به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

بدء إسلام الأنصار :

وخرج رسول الله - ﷺ - في الموسم ، فبينما هو عند العقبة ، إذ لقي رهطاً من الخزرج من الأنصار ، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وعرض عليهم الإسلامَ ، وتلا عليهم القرآنَ .

وكانوا جيرانَ اليهودِ في المدينة ، وكانوا يسمعونهم يخبرون بنبي قد أظل [1] زمانه ، فقال بعضهم لبعض : يا قوم ! تعلموا والله ، إنه للنبي الذي توعّدكم به يهود ، فلا تسبقنكم اليه ، فأجابوه ، وصدقوه ،

---

(١) أظلّ . دنا وقرب .

وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم ، بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رَجُلَ أعزُّ منك .

وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وآمنوا ، وصدقوا ، فلما قدموا المدينة ، ذكروا لإخوانهم رسول الله – ﷺ – ، ودعوهم إلى الاسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها ذكر من رسول الله – ﷺ – .

بيعة العقبة الأولى :

حتى إذا كان العام المقبل ، وافى الموسم

من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلَقُوا برسول الله – ﷺ – وبايعوه بالعقبة الأولى ، على التوحيد ، والتعفف من السّرقة والزنا وقتل الأولاد والطاعة في المعروف .

فلما هَمَّ القوم بالانصراف ، بعث رسول الله – ﷺ – معهم مُصْعَبُ بن عمير ، وأمره أن يُقَرِئَهم القرآن ، ويُعَلِّمهم الاسلامَ ، ويُفَقّهُهم في الدين ، فكان يسمّى « المقرىء » بالمدينة ، ونزل على أسعد بن زُرَارَةَ ، وكان يصلي بهم .

انتشار الاسلام في المدينة :

وجعل الاسلام يفشو في منازل الأنصار – الأوس والخزرج – وأسلم سعد بن معاذ

وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وهما سيِّدا قومِهما ، من بني عبد الأَشْهَل من الأَوْس ، بحكمة من أسلم قبلهما ، وتلطفهم ، وبحسن دعوة مصعب بن عُمَيْر ، وأسلم بنو عبد الأشهل عن آخرهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رجال ونساء مسلمون .

بيعة العقبة الثانية :

ورجع مصعب بن عُمَيْر إلى مكة في العام القابل ، وخرج عدد من المسلمين من الأنصار مع حجاج قومهم ، من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله — ﷺ — العقبةَ ، فلما فرغوا من الحج ، ومضى ثلث الليل ، اجتمعوا في الشعب عند العقبة ،

وهم ثلاثة وسبعون رجلاً ، وامرأتان من النساء ، وجاء رسول الله - ﷺ - ومعه عمه العَبّاس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه .

وتكلم رسول الله - ﷺ - وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغّب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فبايعوه ، واستوثقوا منه ألاّ يدعهم ويرجع إلى قومه ، فوعد بذلك رسول الله - ﷺ - فقال : أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم ، واختار رسول الله - ﷺ - منهم اثني عشر نقيباً (١) ، تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس.

---

(١) سيد القوم وعريفهم .

الاذن بالهجرة إلى المدينة :

ولما بايع رسول الله - ﷺ - هذا الحي من الأنصار على الاسلام والنصرة له ، ولمن أتبعه ، فأَوَى إليهم عددٌ من المسلمين ، أمر رسول الله - ﷺ - أصحابه ، ومن معه بمكة ، من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة ، والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : إن الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها ، فخرجوا أرسالاً [1] .

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر الاذن من الله في الخروج من مكة والهجرة الى المدينة .

---

(١) أرسالا : يعنى جماعة في إثر جماعة .

ولم تكن هجرة المسلمين من مكة هينة سهلة ، تسمع بها قريش وتطيب بها نفسا ، بل كانوا يضعون العراقيل في سبيل الانتقال من مكة الى المدينة ، ويمتحنون المهاجرين بأنواع من المِحَن ، وكان المهاجرون لا يعدلون عن هذه الفكرة ، ولا يؤثرون البقاء في مكة فمنهم من كان يضطر إلى أن يترك امرأته وابنه في مكة ، ويسافر وحده ، كما فعل أبو سَلْمَة ، ومنهم من كان يضطر إلى أن يتنازل عن كل ما كسبه في حياته ، وجمعه من ماله ، كما فعل صُهَيْبٌ .

وهاجر عمر بن الخطاب ، وطَلْحَةُ ، وحَمْزَة ، ويزيد بن حَارِثَة ، وعبد الرحمن ابن عَوْف ، وزُبَيْر بن العَوّام ، وأبو حُذَيْفَة ،

وعثمان بن عفان ، وآخرون - رضي الله عنهم - وتتابعت الهجرة ، ولم يتخلف مع رسول الله - ﷺ - بمة - غير من حُبِس وفُتِن - إلاّ عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحافة - رضي الله عنهما - .

تآمر قريش على رسول الله - ﷺ - الأخير ، وخيبتهم فيما أرادوا :

ولما رأت قريش أن رسول الله - ﷺ - قد صار له أصحاب وأنصار في المدينة ، ولا سلطان لهم عليها ، تخوّفوا من خروج رسول الله - ﷺ - إلى المدينة وعرفوا أنّه إذا كان ذلك فلا حيلة لهم فيه ، ولا سبيل لهم عليه فاجتمعوا في «دار الندوة» ، وهي دار

قُصَيّ بن كلاب ، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلاّ فيها ، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله - ﷺ - واجتمع فيها أشراف قريش .

واجتمع رأيهم أخيراً على أن يُؤخذ من كل قبيلة فتى شابّ صاحب جلادة ونسب فَيُهاجموا رسول الله - ﷺ - ويضربوا ضربةَ رجلٍ واحدٍ ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مَنَاف على حرب قومهم جميعاً ، وتفرّق القوم على ذلك ، وهم مُجْمِعُون له .

وأخبر الله رسولَه - ﷺ - بهذه المؤامرة ، فأمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه

متسجّياً [1] ببردته ، وقال : لن يخلص إليك شيء تكرهه .

واجتمع القوم على بابه وهم متهيئون للوثوب ، وخرج رسول الله - ﷺ - وأخذ حفنة [2] من تراب في يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو آيات من سورة « يٓس » من أولها إلى قوله تعالى : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » [3] .

وأتاهم آتٍ فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ ، قالوا : محمداً ، قال : خيَّبكم الله ، قد والله

---

(١) متسجّيا : متغطّيا .

(٢) (بفتح الفاء وضمها وفتح النون) ملء الكفين .

(٣) سورة يٓس - ٩ .

خرج ، وانطلق لحاجته .

وتطلَّعُوا ، فرأوا نائماً على الفراش ، فلم يشكّوا في أنه رسول الله – ﷺ – فلما أصبحوا ، قام عليّ – رضي الله عنه – عن الفراش ، فخجلوا ، وانقلبوا خائبين .

هجرة الرسول – ﷺ – إلى المدينة :

وجاء رسول الله – ﷺ – إلى أبي بكر ، فقال له : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبةَ يا رسول الله ! قال : الصحبة ، وبكى أبو بكر من الفرح ، وقدّم أبو بكر رَاحِلَتَين ، كان قد أعدّهما لهذا السفر ، وستأجر عبد الله بن أُرَيْقِطْ ، ليدلّهما على الطريق ، وأمر رسول

الله – ﷺ – علياً رضي الله عنه بأن يتخلف بمكة ، حتى يؤدّي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده ، فليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلاّ وضعه عند رسول الله – ﷺ – لصدقه وأمانته .

في غار ثور :

وخرج رسول الله – ﷺ – وأبو بكر من مكة مستخفييْن ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمّع لهما ما يقول الناس فيهما بمكة ، وأمر عامر بن فُهَيْرَة مولاه أن يرعى غنمه نهاراً ، ويُرِيحها عليهما ليلاً ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام .

وعمدا إلى غار من ثور [1] ، ودخل أبو بكر قبل رسول الله – ﷺ – فلمس الغار خوفاً من أن يكون فيه ما يؤذي رسول الله – ﷺ – ، ثم دعاه .

وبينما هما كذلك إذ بعث الله العنكبوت ، فنسجت ما بين الغار والشجر التي كانت على وجه الغار ، وسترت رسول الله – ﷺ – وأبا بكر ، وأمر الله حمامتين وحشيتين ، فأقبلتا تدفان [2] ، حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة ، «ولله جنود السموات والأرض» .

واقتفى المشركون أثر رسول الله – ﷺ – فلما بلغوا الجبل ، اختلط عليهم ، فصعدوا

---

(١) ثور . جبل بأسفل مكة .

(٢) تحركان جناحيهما .

الجبل ، فمرّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه .

لا تحزن إن الله معنا :

وبينما هما في الغار ، اذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه ، رآنا ، قال : ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟ وفي ذلك يقول القرآن :

« ثانيَ اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا » [1] .

---

(١) سورة التوبة – ٤٠ .

ركوب سُرَاقَة في إثر الرسول ﷺ وما وقع له :

وجعلت قريش في رسول الله - ﷺ - حين فقدوه ، مائة ناقة ، لمن يردّه عليهم ، ومكثا في الغار ثلاث ليال ، ثم انطلقا ، ومعهما عامر بن فهيرة ، ودليل من المشركين ، استأجره رسول الله - ﷺ - فأخذ بهم على طريق السواحل .

وحمل سُرَاقَةَ بن مالك بن جُعْشَم الطّمَعُ على أن يتبع رسول الله - ﷺ - ويردّه على قريش ، فيأخذ مائة ناقة منهم ، فركب على أثره يعدو ، وعثر به الفرس ، فسقط عنه ، فأبى إلا أن يتبعه ، فركب في أثره ، وعثر به

الفرس مرة ثانية ، فسقط عنه ، وأبى إلا أن يتبعه ، فركب في أثره ، فلما بدا له القوم ، ورآهم ، وعثر به الفرس مرة ثالثة ، وذهبت يداه في الأرض وسقط عنه ، وتبعهما دخان كالإعصار [1] .

وعرف سراقة حين رأى ذلك أنه رسول الله – ﷺ – في حماية الله تعالى ، وأنه ظاهر لا محالة ، فنادى القوم ، وقال : أنا سراقة ابن جعشم ، انظروني أكلمكم ، فوالله لا يأتيكم مني شيء تكرهونه ، فقال رسول الله – ﷺ – لأبي بكر : قل له : وما تبتغي منّا ؟ ، قال سراقة : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك ،

---

(١) الاعصار : ريح ترتفع بالتراب أو بمياه البحار مستديرة كأنها عمود .

فكتب له عامر بن فهيرة كتاباً في عظم أو رقعة .

سوارَ كسرى في يد سراقة :

قال رسول الله – ﷺ – لسراقة : «كيف بك إذا لبست سِوَارَيْ كسرى ؟» .

وكان كذلك ، فلما أُتِيَ عمر – رضي الله عنه – بسوارَي كسرى ومنطقته وتاجه ، دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها .

وعرض عليه سراقة الزاد والمتاع ، فلم يقبله رسول الله – ﷺ – ولم يزد أن قال : أَخْفِ عنّا .

رجل مبارك :

ومر في مسيرهما بأم مَعْبَد الخزاعية ،

وكانت عندها شاة ، خلَّفها الجهد عند الغنم ، فمسح رسول الله – ﷺ – بيده ضرعها وسمّى الله ودعا ، فدرّت ، فسقاها ، وسقى أصحابه ، حتى رَوُوا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانيا ، حتى ملأ الإناء ، فلما رجع أبو معبد ، سأل عن القصة ، فقالت : لا والله ، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كيت وكيت ، وصفته وصفاً جميلاً ، قال : والله إني لأراه صاحب قريش ، الذي تطلبه .

ولم يزل يسلك بهما الدليل ، حتى قدم بهما قباء ، وهي في ضواحي المدينة وذلك في الثاني عشر من ربيع الأول ، يوم الاثنين ، فكان مبدأ التاريخ الإسلامي .

في المدينة

كيف استقبلت المدينة رسول الله ﷺ :

وسمع الأنصار بخروج رسول الله - ﷺ - من مكة ، وهم ينتظرونه أكثر من انتظار الصائمين لهلال العيد ، وكانوا يخرجون كل يوم ، إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة ، ينتظرون رسول الله - ﷺ - فما يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، فيدخلون بيوتهم ، وكان الزمن زمن صيف وحرّ .

وقدم رسول الله - ﷺ - حين دخل الناس البيوت ، وكان اليهود يرون ما يصنع

الأنصار ، وكان أول من رآه رجل من اليهود ، فصرخ بأعلى صوته ، وأخبر الأنصار بقدوم رسول الله ، فخرجوا إلى رسول الله – ﷺ – وهو في ظل نخلة ، ومعه أبو بكر – رضي الله عنه – في مثل سنّه ، وأكثرهم لم يكن رأى رسول الله – ﷺ – قبل ذلك ، وازدحم الناس ، ما يميزون بينه وبين أبي بكر ، وفطن لذلك أبو بكر ، فقام يُظِلّه بردائه ، فانكشف للناس الأمرُ .

وكبّر المسلمون فرحاً بقدومه ، وما فرحوا لشيء في حياتهم كفرحهم بقدوم رسول الله – ﷺ – ، حتى كانت النساء والصبيان والاماء يقولون : هذا رسول الله – ﷺ – قد جاء ، هذا رسول الله – ﷺ – قد جاء ،

وكانت بنات الأنصار يُنشدن في سرور ونشوة :

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

يقول أنس بن مالك الأَنصاري –وهو غلام يومئذ– : شهدت رسول الله– ﷺ – يوم دخل المدينة ، فما رأيت يوماً قطّ ، كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا .

مسجد في قباء ، وأول جمعة في المدينة :

وأقام رسول الله– ﷺ –بقباء أربعة أيام ، وأسّس مسجداً هناك .

في بيت أبي أيوب الأنصاري :

وخرج رسول الله - ﷺ - إلى المدينة والناس يتلقونه في الطريق أرسالاً ، ويطلبون منه الاقامة عندهم ، ويمسكون بزمام الناقة ، فيقول : خلُّوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، ووقع ذلك مراراً حتى إذا أتى دار بني مالك بن النجار ، بركت على مكان فيه باب المسجد النبويّ اليوم ، وهو يومئذ مِرْبَد [1] لغلامين يتيمين من بني النجار ، وهم أخواله ﷺ .

ونزل رسول الله - ﷺ - عن الناقة ، فاحتمل أبو أيوب (خالد بن زيد النجاري الخزرجي) رحله ، فوضعه في بيته ، ونزل

(١) المربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر .

عليه رسول الله – ﷺ – فبالغ أبو أيوب في ضيافته وإكرامه ونزل في السفل من البيت وكره أبو أيوب وأعظم أن يكون في العلو ، فقال : يا أبا أيوب إنّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت .

بناء المسجد النبويّ والمساكن :

ودعا رسول الله – ﷺ – الغلامين ، فساومهما بالمربد ، ليتخذه مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله – ﷺ – أن يقبله منهما هبةً ، حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

وعَمِلَ رسول الله – ﷺ – في بناء المسجد ،

فكان ينقل اللَّبِن [١] ، واقتدى به المسلمون ، وكان رسول الله - ﷺ - يقول :

« اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة »

وكان المسلمون مسرورين سعداء ينشدون الشعر ، ويحمدون الله .

وأقام رسول الله - ﷺ - في بيت أبي أيوب سبعة أشهر ، حتى بنى له مسجده ومساكنه ، فانتقل إلى مساكنه .

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله - ﷺ - فلم يبق بمكة منهم أحد ، إلاّ مفتون ، أو محبوس ، ولم يبق دار من دور الأنصار ، إلاّ أسلم أهلها .

---

(١) اللبن جمع اللَّبِنَة ، أي المضروب من الطين مربّعاً للبناء .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

وآخى رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، وكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين ، حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع ، وكانوا يحكّمونهم في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأرضهم وكراعهم [1] ، ويؤثرونهم على أنفسهم .

وقد يقول الأنصاري للمهاجر : انظر شطر مالي فخذه ، ويقول المهاجر : بارك الله لك في أهلك ومالك ، ودُلّني على السوق ، فكان من الأنصار الايثار ، ومن المهاجرين التعفف وعزة النفس .

---

(١) الكراع : يطلق على الخيل والبغال والحمير .

كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وموادعة يهود :

وكتب رسول الله – ﷺ – كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود ، وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم .

شرع الأذان :

ولما اطمأن رسول الله – ﷺ – بالمدينة ، واستحكم أمر الاسلام ، وكان الناس يجتمعون إليه للصلاة ، في مواقيتها بغير دعوة ، وكره رسول الله – ﷺ – طُرُقَ الاعلان التي اعتادها اليهود والنصارى من بوق وناقوس ونار ،

أكرم الله المسلمين بالأذان ، فأراه بعضهم في المنام ، فأقرَّه رسول الله – ﷺ – وشرعه للمسلمين واختِيرَ بلال بن رباح الحبشي للأذان ، وكان مُؤَذِّن رسول الله – ﷺ – فكان إمام المؤذنين إلى يوم القيامة .

ظهور المنافقين في المدينة :

وجعل الاسلام ينتشر في المدينة ، وأسلم بعض أحبار اليهود وعلماؤهم ، كعبد الله ابن سلام ، ودبّ الحسد الى اليهود ، وإلى من كان يحلم بالرئاسة ، وأن يُتَوَّج ، فيأمر وينهي ولا يُنَازَع في رئاسته ، كعبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول ، كان قد تم له كل ذلك إذ جاء الاسلام وصار الناس يدخلون فيه أفواجاً ،

فحسده ، وعاداه كل من كان في قلبه مرض وفي السيادة طمع أو غرض ، وكان منهم أعداء مجاهرون ، ومنافقون مسرّون .

تحويل القبلة :

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون يصلون إلى قبلة بيت المقدس ومضى على ذلك ستة عشر شهراً ، بعد ما قدم المدينة ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يُصْرَف إلى الكعبة ، وكان المسلمون العرب - وقد رضعوا بلبان حبّ الكعبة وتعظيمها وامتزج ذلك بلحومهم ودمائهم - لا يعدلون بالكعبة بيتاً ، ولا بقبلة إبراهيم وإسماعيل قِبلةً ، وكانوا يحبون أن يُصْرَفوا إلى الكعبة ، وكان في

جعل القِبلة إلى بيت المقدس ، محنة للمسلمين ولكنهم قالوا : « سمعنا وأطعنا » وقالوا : « آمنّا به ، كلّ من عند ربّنا » ، فلم يكونوا يعرفون إلا الطاعة لرسول الله — ﷺ — والخضوع لأوامر الله ، وافقت هواهم أم لم توافقها ، واتفقت مع عاداتهم أو لم تتفق .

فلما امتحن الله قلوبهم للتقوى واستسلامهم لأمر الله ، صرف رسوله والمسلمين إلى الكعبة ، ويقول القرآن :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وما جعلنا القِبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممن يَنقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلاّ على الذين

هدى الله [1] » .

وانصرف المسلمون الى الكعبة مطيعين لله ولرسوله ، وصارت قبلة للمسلمين إلى يوم القيامة ، أينما كانوا وَلَّوْا وجوههم شطرها .

تحرش قريش بالمسلمين بالمدينة :

فلما استقر الاسلام بالمدينة ، وعرفت قريش أنه في نمو وازدهار ، وأن كل يوم يمضي يزيد في قوته وانتشاره ، هنالك شمّروا [2] للمسلمين عن ساق العداوة والمحاربة

---

(١) سورة البقرة – ١٤٣ .

(٢) شمّر الثوب عن الساق ، رفعه عنها ، والمراد : اشتدّوا في العداوة .

والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ويقول لهم : « كفّوا أيديكم وأقيموا الصلاة » .

الإذن بالقتال :

فلما قَوِيَت الشوكة ، واشتد الجناح ، أَذِنَ لهم في القتال ، ولم يفرضه عليهم ، فقال : « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا ، وان الله على نصرهم لقدير [1] » .

سرايا وغزوة أَبْوَاء :

وبدأ رسول الله – ﷺ – يبعث سرايا وبعوثاً إلى بعض القبائل والنواحي ، ولم تكن في غالب الأحيان حرب ، وقد تكون

---

(١) سورة الحج – ٣٩ .

مناوشات [1] ، وكانت تفيد إلقاء الرعب في قلوب المشركين ، وتظهر بها شوكة المسلمين ونشاطهم .

وغزا رسول الله - ﷺ - بنفسه غزوة « الأبواء » ، وهي أول غزوة غزاها بنفسه ، وتلتها غزوات وسرايا .

فرض صوم رمضان :

وفي السنة الثانية للهجرة فرض الصوم ، وأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلّكم تتّقون [2] » .

---

(١) احتكاكات واصطدامات .

(٢) سورة البقرة - ١٨٣ .

وقال : « شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه [1] » .

(۱) سورة البقرة – ١٨٥ .

معركة بدر الحاسمة

وفي رمضان سنة اثنتين من الهجرة، كانت غزوة بدر الكبرى، وقد سمّى الله هذه المعركة بيوم الفرقان، فقال:

«إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان [1]».

وكان من خبر هذه الغزوة أن رسول الله ـ ﷺ ـ سمع بأبي سفيان بن حرب مُقْبِلاً من الشام في عير [2] عظيمة لقريش، فيهاَ أموالهم وتجاراتهم، وكانت الحرب قائمة

(١) سورة الأنفال ـ ٤١.

(٢) قافلة.

بين المسلمين وبين قريش المشركين ، وكانت تبذل أموالها وكل ما تملكه ، في محاربة الإسلام ، وإضعاف شأن المسلمين ، وكانت كَتَائِبُهم تصل إلى حدود المدينة وإلى مراعيها .

فلما سمع رسول الله - ﷺ - بأبي سفيان مُقْبِلاً من الشّام ، على رأس هذه العير ، وكان من أشد الناس عداوةً للإسلام ، ندب رسول الله - ﷺ - الناسَ للخروج إليها ، ولم يحتفل لها احتفالا بليغاً ، لأَنّ الأمر أمر عير لا نفير .

وبلغ أبا سفيان مخرجُ رسولِ الله - ﷺ - وقَصْدُه إياه ، فأرسل إلى مكة مستصرخاً [1] لقريش ليمنعوه من المسلمين ،

---

(١) يعنى مستنصراً ومستغيثا .

وبلغ الصريخ أهلَ مكة ، فجدّ جدّهم ونهضوا مسرعين ، ولم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب ، فانه عوّض عنه رجلاً .

تجاوب الأنصار وتفانيهم في الطاعة :

ولما بلغ رسول الله - ﷺ - خروج قريش ، استشار أصحابه ، وكان يعني الأنصار ، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه في ديارهم ، فلما عزم على الخروج من المدينة أراد أن يعلم ما عندهم ، فتكلّم المهاجرون ، فأحسنوا ثم استشارهم ثانياً ، فتكلمو أيضاً فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثا ، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله ! كأنك تعرض بنا ، لعلك تخشى

أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ، أن لا تنصرك إلاّ في ديارهم ، إني أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصِلْ حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحبَّ إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر ، فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان [١] ، لنسيرنّ معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر ، خضناه معك .

وقال له المقداد : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : « اذهب أنت وربك

---

(١) وفي بعض الرواية برك الغماد وهو موضع بناحية اليمن .

فقاتلا إننا ههنا قاعدون [1] » ، ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .

فلما سمع رسول الله – ﷺ – أشرق وجهه ، وسُرَّ بما سمع من أصحابه ، وقال : سِيروا ، وأَبْشِرُوا .

تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة :

ولما تَوَجَّه المسلمون الى بدر ، خرج غلام اسمه عُمَير بن أبي وَقَّاص ، وهو في السادسة عشرة من سنّه ، وكان يخاف أن لا يقبله النبي – ﷺ – لأنه صغير ، فكان يجتهد أن لا يراه أحد ، وكان يتوارى ،

(١) سورة المائدة – ٢٤ .

وسأله أخوه الأكبر : سعد بن أبي وقاص عن ذلك ، فقال : أخاف أن يردني رسول الله - ﷺ - وأنا أُحِبّ الخروج ، لعل الله يرزقني الشهادة ، وكان كذلك ، فأراد رسول الله - ﷺ - أن يرده ، لأنه لم يبلغ مِبلغ الرجال ، فبكى عمير ، ورقّ له قلب رسول الله - ﷺ - فأجازه ، وقُتِلَ شهيداً في الغزوة .

التفاوت بين المسلمين والكفار في العَدَد والعُدَد :

وخرج رسول - ﷺ - مُسرعاً في ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً ، لم يكن معهم من الخيل إلاّ فَرَسان ، وسبعون بعيراً ، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد لا فرق في

ذلك بين جندي وقائد ، وتابع ومتبوع ، فكان منهم رسول الله -ﷺ- وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة .

ودفع اللواء الى مصعب بن عمير ، وراية المهاجرين إلى علي بن أبي طالب ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ .

ولما سمع أبو سفيان خروجَ المسلمين ، خفض ولحق بساحل البحر ، ولما رأى أنه قد نجا وسَلِمَت العير ، كتب إلى قريش أن ارجعوا ، فإنكم إنّما خرجتم لتحرزوا [1] عيركم ، وهمّوا بالرجوع ، فأبى أبو جهل إلا القتال ، وكانت قريش بين ألف وزيادة ، منهم صناديد قريش ، وسادتها ، وفرسانها ،

---

(١) أي تصونوا وتحفظوا .

وأبطالها ، فقال رسول الله - ﷺ - هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كَبدِها .

وسبق رسول الله - ﷺ - وأصحابه إلى الماء شطرَ اللّيل ، وصنعوا الحِيَاض ، وسمح رسول الله - ﷺ - لمن وردها من الكفار بالشرب .

وأنزل الله - عزّ وجلّ - في تلك الليلة مطراً ، كان على المشركين وابلاً شديداً ، منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين رحمةً وَطَّأَ الأرض ، وصَلَّب الرمل ، وثبّت الأقدام ، وربط على قلوبهم ، وهو قوله تعالى :

« وينزل عليكم من السمآء ماء ليُطهّركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على

قلوبكم ويثبّت به الأقدام [1] » .

استعداد للمعركة :

وبُنِيَ لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – عريشٌ ، يكون فيها على تَلٍّ مشرف على المعركة ، ومشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان إن شاء الله – فما تعدّى أحد منهم مَوْضِعَ إشارته .

ولما طلع المشركون ، وتراءى الجمعان ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، جاءت تحازبك ، وتكذّب رسولك » وكانت ليلة

---

(١) سورة الأنفال – ١١ .

الجمعة ، السابع عشر من رمضان ، فلما أصبحوا ، أقبلت قريش في كتائبها ، واصطفّ الفريقان .

دعاء وتضرّع :

وعدّل [1] رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الصفوفَ ، ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه أبو بكر ، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يُكثر الابتهال ، والتضرّعَ والدعاءَ ، واستغاث بالله الذي لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه « وما النصر إلا من عند الله » ، فقال : « اللهم إن تهلك هذه العصابة [2] لا تعبد بعدها في الأرض » ، وجعل يهتف

(١) سوّى .

(٢) العصابة : الجماعة .

بربه عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم نصرك » ، ويرفع يديه إلى السماء ، حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر - رضي الله عنه - يُسَلّيه ، ويشفق عليه من كثرة الابتهال .

هذان خصمان اختصموا في ربهم :

ثم خرج رسول الله - ﷺ - إلى الناس فحرّضهم على القتال ، وخرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد ، فلما توسّطوا بين الصفّين ، طلبوا المبارزة فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار ، فقالوا : من أنتم ؟ ! .

قالوا : رهط من الأنصار .

قالوا : أكفاء كرام ، ولكن أخرجوا

إلينا من بني عمنا .

قال النبي - صلى الله عليه وسلم - قم يا عبيدة بن الحارث (ابن المطلب بن عبد مناف) وقم يا حمزة ، وقم يا عليّ .

قالوا : نعم ، أكفاء كرام .

وبارز عبيدة - وكان أسنّ القوم - عُتْبَةَ ، وبارز حمزة شَيْبَة ، وبارز عليّ الوَلِيد بن عتبة ، فأما حمزة وعليّ فلم يمهلا خصيميهما أن قتلاهما ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وكرّ حمزة وعليّ بأسيافهما على عتبة فأجهزا [1] عليه ، واحتملا عبيدة ، وهو جريح ، ومات شهيداً .

---

(١) أجهزا عليه : أي شدّا عليه وأتمّا قتله .

التحام الفريقين ونشوب الحرب :

وتزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، ودنا المشركون ، فقال رسول الله - ﷺ - : « قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض » .

أول قتيل :

وقام عمير بن الحمام الأنصاري ، فقال : يا رسول الله ! (ﷺ) جنة عرضها السماوات والأرض ؟ ، قال : نعم ، قال بخ بخ يا رسول الله ! قال : ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟ ، قال : لا والله يا رسول الله إلاّ رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها ، فأخرج تمراتٍ من قرنه [1] ،

(١) جعبته .

فجعل يأكل منهنّ ، ثم قال : لئن حييت حتى آكل من تمراتي هذه ، إنّها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتل حتى قُتِلَ ، فكان أوّلَ قتيل .

والناس على مصافّهم ، صابرون ذاكرون الله كثيرا ، وقاتل رسول الله - ﷺ - قتالاً شديداً ، وكان أقرب الناس من العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً ، ونزل الملائكة بالرحمة والنصر وقاتلوا المشركين .

مسابقة الإخوة الأَشِقّاء في قتل أعداء الله ورسوله :

وتسابق الشباب في الشهادة ونيل السعادة ،

وكانت مسابقة بين أخلاء وأصدقاء وإخوة أشقاء .

يقول عبد الرحمن بن عوف « إني لفي الصف يوم بدر ، اذا التفتُّ فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه يا عم أرني أبا جهل ، فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به ؟ ، قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ، وقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله ، قال : فما سرّني أني بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما اليه ، فشدّا [١] عليه مثل الصقرين ، حتى ضرباه .

ولما قتل أبو جهل قال رسول الله

---

(١) حملا عليه .

– ﷺ – : هذا أبو جهل فرعون هذه الأمة » .

الفتح المبين :

ولما أسفرت الحرب عن انتصار المسلمين وهزيمة المشركين ، قال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، الحمد لله الذي صدق وَعْدَه ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، وصدق الله العظيم :

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة ، فاتَّقُوا الله لعلكم تشكرون [1] » .

وأَمَرَ بالقتلى أن يُطْرَحوا في القليب [2] ،

---

(١) سورة آل عمران – ١٢٣ .

(٢) القليب : البئر .

٢

فطُرِحُوا فيه ، ووقف عليهم فقال : « يا أهل القليب ! هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا ؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا »

وقُتِلَ من سراة الكفار يوم بدر ، سبعون ، وأُسِرَ سبعون ، ومن المسلمين من قريش ستة ، ومن الأنصار ثمانية .

وفرّق رسول الله – ﷺ – الأسارى بين أصحابه ، وقال : استوصوا بهم خيراً .

وقع معركة بدر :

وتوجه رسول الله – ﷺ – إلى المدينة مُؤَيَّداً مُظَفَّراً ، وقد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، وأسلم بشر كثير من أهل المدينة .

ووقعت النياحة في بيوت المشركين بمكة ، وكثر البكاء على القتلى ، ودخل الرعب في قلوب الأعداء .

تعليم غلمان المسلمين فداء الأسرى :

وعفا رسول الله - ﷺ - عن الأسرى وقبل منهم الفداء ، وكان من لا شيء له منّ عليه رسول الله - ﷺ - فأطلقه ، وبعثت قريش في فداء الأسارى ، فأطلق سراحهم .

وكان من الأسرى من لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله - ﷺ - فداءهم أن يعلِّموا أولادَ الأنصارِ الكتابةَ ، فيعلم كل واحد عشرة من المسلمين الكتابة ، وكان زيد بن

ثابت ممن تعلّم بهذا الطريق .

وكان بنو قينقاع أول يهود ، نقضوا ما بينهم وبين رسول الله - ﷺ - وحاربوه ، وآذوا المسلمين ، فحاصرهم رسول الله - ﷺ - خمس عشرة ليلة ، حتى نزلوا على حكمه ، وشفع فيهم حليفهم عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين ، فأطلقهم له رسول الله - ﷺ - ، وكانوا سبع مائة مقاتل وكانوا صاغةً وتُجّاراً .

غزوة أحد

الحمية الجاهلية وأخذ الثأر :

لما أصيب صناديد قريش يوم بدر ، ورجع فُلُّهم إلى مكة ، عظم المصاب عليهم ومشى رجال أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ، فكلموا أبا سفيان ، ومن كانت له في تلك العير تجارة ، فاستعانوا بهذا المال على حرب المسلمين ، ففعلوا ، واجتمعت قريش لحرب رسول الله – ﷺ – وحرّض الشعراء الناس بشعرهم ، وأثاروا فيهم الغيرةَ والحميةَ .

وخرجت قريش في منتصف شوال

سنة ثلاث للهجرة بأبنائها ومن تابعها من القبائل ، وخرج سادة قريش بأزواجهم ، وأقبلوا حتى نزلوا مُقَابِلَ المدينة .

وكان من رَأْي رسول الله - ﷺ - أن يقيم المسلمون بالمدينة ويَدَعوهم ، فان دخلوا عليهم ، قاتلوهم فيها ، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج ، وكان رَأْي عبد الله ابن أُبي ما رأى رسول الله - ﷺ - فقال رجال من المسلمين ممن كان فاته بدر : يا رسول الله - ﷺ - اخرج بنا الى أعدائنا لا يرونا أنا جَبُنَّا عنهم وضَعُفْنا .

فلم يزالوا برسول الله - ﷺ - حتى دخل رسول الله - ﷺ - بيته ، فلبس

لَأْمَته [1] ، وندم الذين اقترحوا الخروج ، فقالوا : استكر هناك يا رسول الله ! ولم يكن ذلك لنا ، فان شئت فاقعد – صلى الله عليك – فقال رسول الله – ﷺ – : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .

وخرج رسول الله – ﷺ – في ألف من أصحابه ، فلما كانوا بالشوط بين المدينة وأُحد ، انخزل [2] عنه عبد الله بن أُبيّ بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني .

في ميدان أحد :

ومضى رسول الله – ﷺ – حتى نزل

---

(١) درعه .

(٢) انفرد وانقطع .

الشعب من أُحد ، وهو جبل على نحو ٣ كيلو من المدينة ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : لا يُقَاتِلَنَّ أحد منكم حتى نأمره بالقتال ، وتعبّىء[1] رسول الله – ﷺ – للقتال ، وهو في سبع مائة رجل ، وأمّر على الرماة عبد الله بن جبير ، وهم خمسون رجلاً ، فقال : ادفع الخيلَ عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، وأَمَرَهم بأن يلزموا مركزهم ، وأن لا يفارقوه ولو رأوا الطير تتخطف العسكر ، ولبس درعاً فوق درع ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير – رضي الله عنه – .

---

(١) تهيّأ .

مسابقة بين أتراب :

ورد رسول الله – ﷺ – جماعةً من الغلمان يوم أُحد لصغرهم ، ورد رسول الله – ﷺ – سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وشفع أبو رافع لابنه ، وقال : يا رسول الله ! ان ابني رافعاً رام ، فأجازه النبي ﷺ .

وعُرِضَ على رسول الله – ﷺ – سمرة ابن جندب ، وهو في سن رافع ورده رسول الله – ﷺ – لصغره ، فقال سمرة : لقد أجزتَ رافعاً وردَدتَني ، ولو صَارَعْتُه لصَرَعْتُه ، ووقعت المصارعة بينهما ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجيز ، وخرج وقاتل يوم أحد .

المعركة :

والتقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض وقامت هند بنت عتبة في النسوة ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، يُحَرِّضْنَهم ، واقتتل الناس ، حتى حميت [1] الحرب ، وقاتل أبو دجانة الذي أخذ السيف من رسول الله – ﷺ – ووعده بأنه يأخذه بحقه ، حتى أمعن في الناس ، وجعل لا يلقى أحداً إلاّ قتله .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتالاً شديداً ، وقتل عدداً من الأبطال ، لا يقف أمامه شيء ، وكان وحشي غلام جبير بن مطعم له

---

(١) اشتدت .

بالمرصاد ، وكان يقذف بحربة له قلما يخطىء لها شيئا ، ووعده جبير بالعتق إن قتل حمزة ، وقد قتل عمه طُعَيْمَةَ يوم بدر ، وكانت هند زوج أبي سفيان تحرّضه كذلك على قتل حمزة وشفاء نفسها ، وحمل وحشي على حمزة بحربته ، فدفعها عليه ، حتى خرجت من بين رجليه ، فوقع شهيداً .

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله - ﷺ - حتى قُتِلَ ، وأُبْلِيَ المسلمون بلاءً حسناً .

غلبة المسلمين :

وأنزل الله - تعالى - نصره عليهم ، وصدقهم وعده ، حتى كشفوا المشركين عن العسكر ،

وكانت الهزيمة لا شك فيها ، وولّت النساء مُشَمّرات هواربَ .

كيف دارت الدائرة على المسلمين :

وبينما هم كذلك اذ انهزم المشركون ، ووَلَّوْا مدبرين ، حتى انْتَهَوْا إلى نسائهم فلما رأى الرماة ذلك ، مالوا إلى العسكر ، وهم موقنون بالفتح ، وقالوا : يا قوم ! الغنيمة ، الغنيمة ، فذَكَّرهم أميرهم عهدَ رسولِ الله – ﷺ – فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة ، فأخلوا الثغر [1] ، وخَلَّوْا ظهورَ المسلمين إلى الخيل ، وأصيب أصحاب لواء المشركين ، حتى ما يدنو منه

(١) موضع المخافة من جانب العدوّ .

أحد من القوم ، فأتاهم المشركون من خلفهم ، وصرخ صارخ : « ألا ! إنّ محمداً قد قُتِلَ » ، فتراجع المسلمون ، وكَرَّ المشركون كرَّةً ، وانتهزوا الفرصة ، وكان يوم بلاء وتمحيص ، وخلص العدوّ إلى رسول الله - ﷺ - وأصابته الحجارة حتى وقع لشقه ، وأصيبت رباعيته ، وشجّ في وجهه ، وجرحت شفته - ﷺ - وجعل الدم يسيل على وجهه ، فيمسحه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا[(١)] وجه نبيهم وهو يدعوهم الى ربهم ؟ ! .

ولا يعلم المسلمون بمكانه ، فأخذ علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - بيد رسول الله - ﷺ - ورفعه طلحة بن عبيد الله ، حتى

---

(١) يعنى أدموا .

استوى قائماً ، ومصّ مالك بن سِنَان الدَّم عن وجهه – ﷺ – وابتلعه .

ولم تكن فرّةً ، انما كانت جولةً يُضْطَرُّ إليها الجيش ، ثم يستأنف كرَّةً .

وما أُصاب المسلمين من نكسة ومحنة ، وما أصيبوا به من خسارة في النفوس ، وشهادةِ من كان قوة للاسلام والمسلمين ، وناصراً لرسول الله – ﷺ – وللدين ، إنما كان نتيجةَ زلّةٍ للرماة ، وعدمِ تمسّكهم بتعاليم الرسول – ﷺ – وأمره إلى اللحظة الأخيرة ، وإخلائهم للجبهة التي عيّنهم رسول الله – ﷺ – عليها وهو قوله تعالى :

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه ، حتّى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر

وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين » . [1]

روائع من الحب والفداء :

نزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله - ﷺ - فسقطت ثنيته ، ونزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين ، وترّس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ ، يقع النبل في ظهره ، وهو مُنْحَنٍ عليه ، حتى كثر فيه النبل ، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله - ﷺ -

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٢ .

ويناوله رسول الله - ﷺ - النبلَ ويقول : ارم فَدَاك أبي وأمي .

وأصيبت عين قَتَادَة بن النعمان ، حتى وقعت على وجنته فردّها رسول الله - ﷺ - بيده ، فكانت أحسن وأحَدَّهما ، وقصده المشركون ، يريدون ما يأباه الله ، فحال دونه نفرٌ نحو عشرة ، حتى قُتِلوا عن آخرهم ، وجالدهم طلحة بن عبيد الله ، ترّس عليه بيده يقي بها رسول الله - ﷺ - فأصيبت أنامله ، وشلّت يده ، وأراد رسول الله - ﷺ - أن يعلوَ صخرةً هنالك ، فلم يستطع لما به من الجراح والضعف ، فجلس طلحة تحته ، حتى صعدها ، وحانت الصلاة فصلى بهم جالساً .

ولما انهزم الناس ، لم ينهزم أنس بن النضر – عم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ – ، وتقدم ، فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ! فقال أنس : واهاً لريح الجنة ، يا سعد إني أجدها دون أحد .

وانتهى أنس بن النضر إلى رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قُتِل رسول الله – ﷺ – ، فقال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قُتِل .

يقول أنس – رضي الله عنه – لقد وجدنا به يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه .

وقاتل زياد بن السكن في خمسة من الأنصار دون رسول الله — ﷺ — يقتلون دونه رجلاً ثم رجلاً ، فقاتل زياد حتى أثبتته الجراحة ، فقال رسول الله — ﷺ — أدنُوه مني ، فأدنَوْه منه ، فوَسَّدَه قدمه ، فمات وخدّه على قدم رسول الله — ﷺ .

وكان عمرو بن الجَمُوح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب ، يغزون مع رسول الله — ﷺ — ، فلما توجه إلى أحد ، أراد أن يخرج معه ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد .

فأتى عمرو رسولَ الله — ﷺ — فقال : إن بَنِيَّ هؤلاء يمنعونني أجاهد معك ، والله

إني لأرجو أن أُسْتَشْهَد ، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول - ﷺ - : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تدَعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله - ﷺ - فقُتِلَ يوم أُحد شهيداً .

يقول زيد بن ثابت - رضي الله عنه - بعثني رسول الله - ﷺ - يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي : إن رأيته ، فاقرأه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله - ﷺ - : كيف تجدك ؟ ، قال : فجعلتُ أطوف بين القتلى ، فأتيتُه ، وهو بآخر رمق (١) ، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة

(١) بقية الروح وآخر النفس .

برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ! إن رسول الله - ﷺ - يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرني كيف تجدك؟ ، فقال : وعلى رسول الله السلام ، وقل له يا رسول الله : أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله ، إن خلص إلى رسول الله - ﷺ - وفيكم عين تطرف (١) ، وفاضت نفسه من وقته .

وقال عبدالله بن جحش في ذلك اليوم : اللهم إني أقسم عليك أن ألقي العدوّ غداً فيقتلوني ، ثم يَبْقُروا (٢) بطني ، ويجْدَعُوا (٣)

---

(١) تتحرك بالنظر .

(٢) يشقوا .

(٣) يقطعوا .

أنفي وأذني ، ثم تسألني فيم ذاك ؟ ، فأقول : فيك .

عودة المسلمين إلى مركزهم :

ولما عرف المسلمون رسول الله - ﷺ - نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب ، وأدركه أُبي بن خلف وهو يقول : أي محمد ! لا نجوتُ إن نجوتَ ، وقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فلما دنا ، تناول رسول الله - ﷺ - الحربة من أحد أصحابه ، ثم استقبله ، وطعنه في عنقه طعنة تقلّب بها عن فرسه مراراً .

وخرج عليّ بن أبي طالب فملأ درقته

ماء [1] ، وغسل عن وجهه الدم ، وكانت فاطمة بنت الرسول - تغسله ، وعليّ يسكب الماء بالمجنّ ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، وألصقتها ، فاستمسك الدم .

وكانت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم تنقلان القِرَب على متونهما ، تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآن ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم ، وكانت أم سليط تزفر [2] لهما القرب .

ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللائي معها يمثلن بالقتلى ، من المسلمين ، يجدعن

---

(١) الدرقة (بفتحتين) الترس من جلود ليس فيه خشب ولا عصب .

(٢) تزفر : تستقي

الآذان والآنف ، وبقرت عن كبد حمزة ، فمضغتها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها .

ولما أراد أبو سفيان الانصراف ، أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، اعل هبل ، فقال النبي – ﷺ – قم يا عمر ، فأجبه فقل : الله أعلى وأجل ، لا سواء ، فقتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم ، قال النبي – ﷺ – أجيبوه ! قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم .

ولما انصرف ، وانصرف المسلمون ، نادى : « إن موعدكم بدر للعام القابل » ، فقال رسول الله – ﷺ – لرجل من أصحابه :

« قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد » .

وفرغ الناس لقتلاهم ، وحزن رسول الله - ﷺ - على حمزة ، وكان عَمَّه وأخاه من الرضاعة والمقاتل دونه .

صبر امرأة مؤمنة :

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه ، وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله - ﷺ - لابنها الزبير بن العوام : ألقها ، فأرجعها ، لا ترى ما بأخيها ، فقال لها : يا أمه ! إنّ رسول الله - ﷺ - يأمركِ أن ترجعي ، قالت : ولم ؟ ، وقد بلغني أن قد مُثّل بأخي ، وذلك في الله ، لأحتسبنّ ولأصبرنّ ، إن شاء الله ، وأتته ، فنظرت

إليه ، وصلّت عليه ، واسترجعت واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله - ﷺ - فدُفِن .

كيف دفن مصعب بن عمير وشهداء أحد :

وقتل مصعب بن عمير صاحب لواء رسول الله - ﷺ - ، ومن أَنْعَمِ فتيان قريش قبل الاسلام ، فكُفّن في بردة ، إن غُطِّي رأسه ، بدت رجلاه ، وإن غُطِّي رجلاه ، بدت رأسه ، فقال النبي - ﷺ - : غُطُّوا بها رأسه ، واجعلوا على رجله الإذخر (١) .

وكان رسول الله - ﷺ - يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد ثم يقول

(١) حشيش طيب الرائحة

أيهم أكثر أخذاً للقرآن ، فاذا أشير له إلى أحد ، قدّمه في اللحد ، وقال أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يُصَلِّ عليهم ، ولم يغسّلوا .

إيثار النساء لرسول الله – ﷺ :

عاد المسلمون إلى المدينة ، فمرّوا بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها ، وأخوها وأبوها ، مع رسول الله – ﷺ – ، فلما نَعَوْا لها ، قالت : فما فعل رسول الله – ﷺ – ؟ ، قالوا : خيراً يا أم فلان ! هو بحمد الله كما تحبّين ، قالت : أرونيه ، حتى أنظر إليه ، قالت : فأشير لها إليه ، حتى إذا رأته ، قالت : كل مصيبة بعدك

جلل [1] .

خروج الرسول - ﷺ - والمسلمين في أثر العدوّ واستماتتهم في نصرة الرسول ﷺ :

وتلاوم المشركون وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئا ، أصبتم بشوكة القوم وحدّهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم [1] ، فأمر رسول الله - ﷺ - بطلب العدو .

هذا ، والمسلَمون مُثْخَنون بالجراح ، فلما كان الغد من يوم الأحد ، أذَّن مؤذِّن رسول الله - ﷺ - في الناس بالخروج في طلب العدو ، وأذن أن لا يخرجنّ معنا أحد إلا

---

(١) جلل : أي هيِّن يسير .

(٢) لم تبتروهم : لم تقطعوهم .

أحد حضر يومنا بالأمس ، وما من المسلمين إلا جريح ثقيل ، فخرجوا مع رسول الله - ﷺ - لم يتخلف منهم أحد ، وانتَهَوا إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها رسول الله - ﷺ - والمسلمون الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجعوا إلى المدينة .

وقد استُشْهِدَ من المسلمين يوم أُحد سبعون ، أكثرهم من الأنصار - رضي الله عنهم - وقُتِلَ من المشركين اثنان وعشرون رجلاً .

أحب إلى النفس من النفس :

وفي سنة ثلاث للهجرة طلبت عضل

والقارة نفراً من المسلمين ، ليعلموهم ، فبعث معهم رسول الله - ﷺ - ستةً من أصحابه ، معهم عاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدسنّة ، فغدروا بالجماعة وقتل أكثرهم .

وأخرجوا زيداً من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش ، فيهم أبو سفيان ابن حرب فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد ! أتحبّ أن محمداً عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك ، قال : والله ما أحبّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي ، قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحبّ أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ، ثم قتل .

وأما خبيب ، فلما جاؤوا به ليصلبوه ، قال لهم : إن رأيتم أن تَدَعُوني حتى أركع ركعتين ، فافعلوا ، قالوا : دونك ، فاركع ، فركع ركعتين ، أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله ، لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جَزَعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة ، وأنشد بيتين :

فلست أبالي حين أقتل مسلما
على أيّ شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وان يشأ
يبارك على أوصال[١] شلو[٢] ممزّع[٣]

---

(١) أوصال : جمع وصل بفتح الواو ، كل عضو على حدة .
(٢) شلو بكسر الشين : العضو من أعضاء اللحم .
(٣) مزّع الشيء ، فرّقه جِدّ تفريق .

بئر معونة :

بعث رسول الله – ﷺ – نفراً من أصحابه على طلب من عامر بن مالك ليدعوهم إلى الاسلام ، وكانوا سبعين رجلاً من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، واجتمع عليهم قبائل من بني سُلَيم : عصية ، ورعل ، وذكوان ، فغشوا القوم ، وأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوا حتى قُتِلُوا عن آخرهم ، إلاّ كعب ابن زيد ، عاش حتى قُتِل يوم الخندق شهيداً .

كلمة قتيل كانت سبباً لإسلام القاتل :

وفي هذه السرية قتل حَرَام بنِ ملْحَان ،

قتله جبار بن سلمى ، وكان سبب إسلامه كلمة قالها حرام ، وهو يجود بنفسه ، يقولُ جبار : إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنتُ رجلاً منهم يومئذ برمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سنان الرمح ، حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : فزت وربِّ الكعبة ! فقلت في نفسي : ما فاز؟ ! ألست قد قتلتُ الرجلَ ؟ ، حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا : للشهادة ، فقلت : فاز لعمَر الله ، فكان سبباً لاسلامه .

اجلاء بني النضير :

خرج رسول الله - ﷺ - إلى بني النضير - وهم قبيلة عظيمة من اليهود - يستعينهم في

دية قتيلين من بني عامر ، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ، فرَقُّوا في الكلام ، ووعدوا بخير ، ولكنهم أضمروا الغدر والاغتيال ، وكان رسول الله - ﷺ - قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم ، فقال بعضهم لبعض : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيُلْقِي عليه صخرةً فيريحنا منه ؟ ، وكان رسول الله - ﷺ - في نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلي .

وأتى رسول الله - ﷺ - الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً الى المدينة ، وأمر رسول الله - ﷺ - بالتهيؤلحربهم والسير اليهم ، ثم سار بالناس ، حتى نزل بهم ،

وذلك في شهر ربيع الأول ، سنة أربع ، فحاصرهم ست ليال ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله – ﷺ – أن يجليهم ، ويكفّ عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم الا السلاح ، فقبل ، واحتملوا من أموالهم ما استقلت بها الإبل .

وقسّم رسول الله – ﷺ – أموالهم إلى المهاجرين الأولين .

غزوة ذات الرقاع :

وفي سنة أربع غزا رسول الله – ﷺ – نجداً ، فسار حتى نزل نخلا ، وقد خرجوا مع النبي – ﷺ – وكانوا ستة بينهم بعير ،

فنقبت أقدامهم ، وسقطت أظفارها ، فكانوا يلفّون على أرجلهم الخرق ، فسمّيت « غزوة ذات الرقاع » .

وتقارب الناس ، ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً ، حتى صلى رسول الله – ﷺ – بالناس صلاة الخوف .

غزوة الخندق
أو
غزوة الأحزاب

وفي شوال سنة خمس كانت غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ، وكانت معركة حاسمة ومحنة ابتلى فيها المسلمون ابتلاءً لم يبتلوا بمثله ، وفيها يقول الله تعالى :

« إِذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإِذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ، هنالك ابتلى المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديدا [1] » .

(١) سورة الأحزاب – ١١ .

وكان سببها اليهود ، فقد خرج نفر من بني النضير ، ونفر من بني وائل ، فقدموا على قريش مكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله - ﷺ - وكانوا قد جرّبوها ، واكتووا بنارها ، فصاروا يتهيئونها ، ويزهدون فيها ، فزينّها لهم الوفد اليهودي ، وهوّن أمرها ، وقالوا : انا سنكون معكم حتى نستأصله ، فسرّ ذلك قريشا ، ونشطوا لما دعوهم اليه ، واجتمعوا لذلك ، واتّعدوا له ، ثم خرج الوفد ، فجاء غطفان ، فدعاها الى ذلك ، وطاف في القبائل ، وعرض عليها مشروع غزو المدينة وموافقة قريش عليه .

واتفقوا على شروط ، وحشدت [1]

---

(١) جمعت .

قريش أربعة آلاف مقاتل ، وغطفان ستة آلاف مقاتل ، فكانوا عشرة آلاف ، وأسندت قيادة الجيش الى أبي سفيان بن حرب .

الحكمة ضالة المؤمن

وقرّر المسلمون التحصّن في المدينة والدفاع عنها ، وكان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل .

هنالك أشار سلمان الفارسي بضرب الخندق على المدينة ، قال سلمان : يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس اذا تخوّفنا الخيل ، خندقنا علينا ، وقبل رسول الله - ﷺ - رأيه ، فأمر بحفر الخندق في الجانب المكشوف

الذي يخاف منه اقتحام [1] العدوّ .

وقسم رسول الله — ﷺ — الخندق بين أصحابه ، لكل عشرة منهم أربعين ذراعا .

روح المساواة والمواساة بين المسلمين :

وعمل رسول الله — ﷺ — في حفر الخندق ، ترغيباً للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه ، فدأب [2] فيه ودأبوا ، وكان البرد شديدا ، ولا يجدون من القوت الا ما يسدّ الرمق ، وقد لا يجدونه .

يقول أبو طلحة : شكونا الى رسول الله — ﷺ — الجوع ، ورفعنا عن بطوننا عن

---

(١) هجوم .

(٢) استمرّ في الجدّ والتعب .

حجر حجر ، فرفع رسول الله - ﷺ - عن بطنه عن حجرين .

وكانوا مسرورين ، يحمدون الله ، ويرتجزون ، ولا يشكون ولا يتعتبون .

يقول أنس - رضي الله عنه - : خرج رسول الله - ﷺ - الى الخندق فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجوع ، قال :

اللهم ! إن العيش عيش الآخرة
فاغفر الأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا
على الجهاد ما بقينا أبدا

عرض للمسلمين في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة ، لا تأخذ فيها المعاول ، فشكوا ذلك الى رسول الله- ﷺ - ، فلما رآها أخذ المعول ، وقال : بسم الله ، وضرب ضربة ، فكسر ثلثها ، وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله اني لأبصر قصورها الحمر ان شاء الله ، ثم ضرب الثانية ، فقطع ثلثاً آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله اني لأبصر قصر المدائن الأبيض ، ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله ، اني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة .

المعجزات النبوية في الغزوة :

وظهرت المعجزات على يد الرسول - ﷺ - فاذا اشتدت على المسلمين في بعض الخندق كدية [1] ، دعا بإناء من ماء ، فتفل فيه ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ، ونضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فانهالت وعادت كالكثيب [2] .

وظهرت البركة في طعام قليل ، فشبع به عدد كبير ، وكفى الجيش كله .

اذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم :

وأقبلت قريش وغطفان بتوابعهم ، فنزلوا

---

(١) كدية : الأرض الصلبة الغليظة ، أو الصفاة العظيمة الشديدة .

(٢) الكثيب . التلّ من الرمل .

أمام المدينة ، وكانوا عشرة آلاف ، وخرج رسول الله - ﷺ - والمسلمون في ثلاثة آلاف ، وبينه وبين قومه الخندق .

وكان بين المسلمين وبين بني قريظة عقد وعهد ، فحملهم حيي بن أخطب - سيد بني النضير - على نقض العهد ، وقد فعل ذلك بعد امتناع وتردّد ، وتحقّقه رسول الله - ﷺ - فعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، وهمَّ رسول الله - ﷺ - بعقد الصلح بينه وبين غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة ، رفقاً بالأنصار ، وتخفيفاً عنهم ، فقد استقلوا بأكبر نصيب من أعباء الحرب .

ثم عدل عن ذلك ، بعدما رأى من

سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، الثبات والاستقامة والصمود أمام العدوّ ، والإباء ، فقال : يا رسول الله ! قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطعمون منها تمرة الا قرى [1] أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالاسلام ، وهدانا له ، وأعزّنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم الا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله — ﷺ — : فأنت وذاك .

(١) القرى : الضيافة .

بين فارس الاسلام وفارس الجاهلية :

وأقام رسول الله – ﷺ – والمسلمون ، وعدوّهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال ، الا أن فوارس من قريش أقبلوا تسرع بهم خيلهم ، حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا : والله ، ان هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ! .

ثم تيمّموا مكانا ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيلهم ، فاقتحمت منه ، فجالت بهم في أرض المدينة ، ومنهم الفارس المشهور : عمرو بن عبد وُدّ ، الذي كان يُقَوَّم بألف فارس ، فلما وقف قال : من يبارز ؟ ، فبرز له عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه –

فقال : يا عمرو ! انك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين ، الا أخذتها منه .

قال : أجل .

قال له علي : فاني أدعوك الى الله وإلى رسوله والى الاسلام .

قال : لا حاجة لي بذلك .

قال : فاني أدعوك الى النزال ، فقال له : لمَ يا ابن أخي ! فوالله ، ما أحبّ أن أقتلك ، قال له عليّ رضي الله عنه : لكني والله أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فعقره ، وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله عليّ – رضي الله عنه – .

أمّ تحرّض ابناً على القتال والشهادة :

تقول عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – وكانت مع نسوة مسلمات في حصن بني حارثة وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب – : مرّ سعد بن معاذ ، وعليه درع قصيرة ، قد خرجت منها ذراعه كلها ، وهو يرتجز ، فقالت له أمه : إلحق ابني ! فقد والله أخّرت ، قالت عائشة – رضي الله عنها – : فقلت لها : يا أم سعد ! والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي ، وكان ما تخوّفته عائشة – رضي الله عنها – فَرُمِيَ سعد بن معاذ بسهم ، فقطع منه الأكحل [1] ومات شهيداً في غزوة بني قريظة .

---

(١) الأكحل . عرق في الذراع .

ولله جنود السماوات والأرض

أحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلهم في مثل الحصن من كتائبهم ، فحاصروهم ، قريباً من شهر ، وأخذوا بكل ناحية ، واشتد البلاء ، وتجهّر النفاق ، واستأذن بعض الناس رسول الله - ﷺ - في الذهاب الى المدينة ، وقالوا : « إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فرارا » .

وبينما رسول الله - ﷺ - وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة ، اذ جاءه نُعْيم بن مسعود الغطفاني ، فقال : يا رسول الله ! اني قد أسلمت ، وان قومي لم يعلموا باسلامي ، فمرني بما شئت ، فقال رسول

الله – ﷺ – انما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنّا ، ان استطعت ، فان الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود ، فأتى بني قريظة ، وتكلّم معهم بكلام ، جعلهم يشكون في صحة موقفهم ، وولائهم لقريش وغطفان الذين ليسوا من أهل البلد ، وعدائهم للمهاجرين والأنصار الذين هم أهل الدار ، وجيرانهم الدائمون ، وأشار عليهم بألاّ يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم ، يكونوا بأيديهم ثقة لهم ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشا ، فأظهر لهم إخلاصه ونصيحته ، وأخبرهم بأن اليهود

قد ندموا على ما فعلوا ، وسيطلبون منهم رجالا من أشرافهم تأميناً للعهد ، وسيسلمونهم الى النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، فيضربون أعناقهم ، ثم خرج الى غطفان ، وقال لهم مثل ما قال لقريش ، فكان كلا الفريقين على حذر ، وتوغرت صدورهم على اليهود ، ودبّت الفرقة بين الأحزاب ، وتوجّس كل منهم خيفة من صاحبه .

ولما طلب أبو سفيان ورؤوس غطفان معركة حاسمة بينهم وبين المسلمين تكاسل اليهود ، وطلبوا منهم رهناً من رجالهم ، فتحقق لقريش وغطفان صدق ما حدثهم به نعيم بن مسعود ، وامتنعوا عن تحقيق طلبهم ، وتحقق لليهود صدق حديثه كذلك ، وهكذا

تخاذل بعضهم عن بعض ، وتمزق الشمل ، وتفرّقت الكلمة .

وكان من صنع الله لنبيه أن بعث الله على الأحزاب الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد ، فجعلت تقلب قدورهم وتطرح أبنيتهم ، وقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ! انكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف [1] ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فاني مرتحل .

---

(١) الخفّ : للبعير والنعام ، كالحافر لغيرهما ، والمراد هنا ذو الخف من الحيوان .

وقام أبو سفيان الى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ثم ضربه ، فما أطلق عقاله الا وهو قائم .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا [1] راجعين الى بلادهم ، ورسول الله — ﷺ — قائم يصلي ، وأخبره حذيفة ابن اليمان ، الذي أرسله رسول الله — ﷺ — عيناً الى الأحزاب ، ينظر له ما فعل القوم ، ثم يرجع ، فأخبره بما رأى ، فلما أصبح انصرف عن الخندق راجعاً الى المدينة ، وانصرف المسلمون ، ووضعوا السلاح ، وصدق الله العظيم :

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله

---

(١) انهزموا وانفضوا .

عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا [1] » ، وصدق تبارك وتعالى : « وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزا [2] » .

وقد وضعت الحرب أوزارها ، فلم ترجع قريش بعدها الى حرب المسلمين ، وقال رسول الله – ﷺ – لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم .

واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة ، على أكثر تقدير ، وقتل من المشركين أربعة .

---

(١) سورة الأحزاب – ٩ .

(٢) سورة الأحزاب – ٢٥ .

غزوة بني قريظة

نقض بني قريظة العهد

كان رسول الله – ﷺ – لما قدم المدينة ، كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم ، وجاء فيه : « أن بينهم النصر على ما حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبِر دون الإثم ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

ولكن حيي بن أخطب اليهودي سيد بني

النضير نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد ، وممالأة قريش ، بعد ما قال سيدهم كعب بن أسد القرظي : لم أر من محمد الاّ صدقاً ووفاء ، ونقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله – ﷺ – ولما انتهى الى رسول الله – ﷺ – خبر نقضهم للعهد ، بعث سعد بن معاذ – رضي الله عنه – سيد الأوس – وهم حلفاء بني قريظة – وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، في رجال من الأنصار ، ليتحقّقوا الخبر ، فوجدوهم على شرّ ممّا بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله – ﷺ – وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد .

وبدأوا في الاستعداد للهجوم على

المسلمين ، وهكذا حاولوا طعن جيش المسلمين من الخلف ، وكان ذلك أشدّ وأنكى من الهجوم السافر والحرب في الميدان ، وذلك قوله تعالى :

« اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم [1] »

واشتد ذلك على المسلمين .

المسير الى بني قريظة

فلما انصرف رسول الله – ﷺ – والمسلمون من الخندق ، راجعين الى المدينة ، ووضعوا السلاح ، أتى جبرئيل وقال : أوَقد وضعت السلاح يا رسول الله ! قال : نعم ، فقال

(١) سورة الأحزاب – ١٠ .

جبرئيل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، ان الله عز وجل يأمرك بالمسير الى بني قريظة ، فاني عامد اليهم ، فمزلزل بهم ، فأمر رسول الله - ﷺ - مؤذناً فأذن في الناس : أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر الاّ في بني قريظة .

ونزل رسول الله - ﷺ - ببني قريظة ، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب .

أتى لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم

ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله - ﷺ - فشفعت لهم الأوس وكانوا مواليهم دون الخزرج ، فقال رسول الله - ﷺ - :

ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسول الله - ﷺ - : فذاك الى سعد بن معاذ ، فأرسل اليه ، فلما جاء اليه ، قال له بنو قبيلته : يا أبا عمرو ! أحسن في مواليك ، فان رسول الله - ﷺ - انما ولاّك ذلك ، لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه ، قال : لقد أتى لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم ، قال سعد : فاني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء ، قال رسول الله - ﷺ - لقد حكمت فيهم بحكم الله .

وقد وافق ذلك قانون الحرب في شريعة بني اسرائيل ، ووافق ما جاء في

التوراة ونفذ في بني قريظة حكم سعد بن معاذ ، وأمن المسلمون من الطعن من الخلف ، ومن نشر الفوضى في الداخل .

وقتلت الخزرج سلام بن أبي الحقيق ، وكان ممن حزّب الأحزاب ، وكانت الأوس قد قتلت من قبل كعب بن الأشرف ، وكان مقدماً في عداوته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتحريض عليه ، فنجا المسلمون من الرؤوس التي كانت تكيد ضد الاسلام والمسلمين ، وتقود الحركات ضدهم واستراح المسلمون .

العفو عمّن ظلم وعطاء من حرم

بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيلا قبل نجد ، فجاءت بثمامة بن أثال سيد بني حنيفة ، فربط

الى سارية من سواري المسجد .

ومرّ به رسول الله - ﷺ - وقال : ما عندك يا ثمامة ؟

قال : يا محمد ! اذ تقتل تقتل ذا دم ، وان تنعم تنعم على شاكر ، وان كنت تريد المال ، فاسأل تعط منه ما شئت ، فتركه ، ثم مرّ به مرة أخرى ، وقال له مثل ذلك فردّ عليه كما ردّ عليه أولا ، ثم مرّ به مرّة ثالثة فقال : أطلقوا ثمامة ، فأطلقوه .

وذهب ثمامة الى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال : والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض اليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه اليّ ، والله ما كان على وجه الأرض

دين أبغض اليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان اليّ ، وان خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشّره رسول الله - ﷺ - وأمره أن يعتمر .

فلما قدم ثمامة على قريش ، قالوا : صبوت [1] يا ثمامة ! قال : لا والله ، ولكني أسلمت مع محمد - ﷺ - لا والله ، ما يأتيكم من اليمامة حبة حنطة ، حتى يأذن فيها رسول الله - ﷺ - وكان اليمامة ريف [2] مكة .

فانصرف الى بلاده ، ومنع الحمل الى مكة ، حتى جهدت [3] قريش ، وكتبوا

---

(١) أي خرجت من دينك .

(٢) ريف : الأرض الخصبة التي يأتي منها الطعام .

(٣) جهدت بالبناء للمفعول : هزلت وضعفت .

الى رسول الله – ﷺ – يسألونه بأرحامهم ، أن يكتب الى ثمامة يخلي اليهم حمل الطعام ففعل رسول الله – ﷺ – .

صلح الحديبية

رؤيا رسول الله ﷺ وتهيؤ المسلمين لدخول مكة :

كان رسول الله — ﷺ — قد رأى في المنام ، أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فاستبشروا به ، وفرحوا فرحاً عظيماً وقد طال عهدهم بمكة ، والكعبة ، وتاقت نفوسهم الى الطواف حولها .

وكان المهاجرون أشدهم حنيناً الى مكة ، فقد ولدوا ونشأوا فيها ، وأحبوها حباً شديدا ، وقد حيل بينهم وبينها ، فلما أخبرهم

رسول الله - ﷺ - بذلك ، تهيأوا للخروج مع رسول الله - ﷺ - لم يتخلف منهم الا نادر .

الى مكة بعد عهد طويل :

خرج رسول الله - ﷺ - من المدينة في ذي القعدة سنة ست ، معتمراً - لا يريد حرباً - الى الحديبية ، ومعه ألف وخمس مائة ، وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة [1] ، ليعلم الناس أنه انما خرج زائراً للبيت ، معظماً له .

وبعث بين يديه عيناً له ، يخبره عن

---

(١) العمرة : لغة الزيارة ، وفي الشرع : زيارة البيت الحرام بكيفية خاصة وشروط مخصوصة ، وما يقوم به المعتمر من الأعمال هو الاحرام ، والطواف ، والسعي ، والحلق ، والتقصير .

قريش ، حتى اذا كان قريباً من « عسفان »[١] أتاه عينه ، فقال : اني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك جموعا ، وهم مقاتلوك ، وصادّوك عن البيت ، وسار النبي - ﷺ - حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ماء قليل ، وشكوا الى رسول الله - ﷺ - العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فما زال يجيش لهم بالريّ حتى صدروا[٢] عنه .

وفزعت قريش لنزول رسول الله - ﷺ - عليهم ، فأحب أن يبعث اليهم رجلا من أصحابه ، فدعا رسول الله - ﷺ - عثمان

---

(١) موضع بين جحفة ومكة .

(٢) أي رجعوا عنه وهم رواة .

ابن عفان ، فأرسله الى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمارا ، وادعهم الى الاسلام ، وأمره أن يأتي رجالا بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفي فيها بالايمان .

وانطلق عثمان حتى جاء مكة ، وأتى أبا سفيان ، وعظماء قريش ، وبلغهم عن رسول الله – ﷺ – ما أرسله به .

قالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله – ﷺ – اليهم : ان شئت أن تطوف بالبيت ، فطف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله – ﷺ –

بيعة الرضوان :

بلغ رسول الله ـ ﷺ ـ أن عثمان قد قتل ، فدعا الى البيعة ، فثار المسلمون الى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه أن لا يفرّوا وأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بيد نفسه ، وقال : هذه عن عثمان ، فكانت بيعة الرضوان تحت شجرة سمرة في الحديبية ، التي أنزل الله عنها :

« لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة [1] » .

واختلفت أربعة رسل بين قريش وبين رسول الله ـ ﷺ ـ ، ورسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) سورة الفتح ـ ١٨ .

يقول لكل واحد : انا لم نجيء لقتال أحد ولكنا جئنا معمرين ، وقريش على عنادها وإبائها .

ومن هؤلاء الرسل عروة بن مسعود الثقفي ، ورجع الى أصحابه وقال : أي قوم ! والله ، لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا ، ووصف لهم ما رآه .

معاهدة وصلح ، وحكمة وحلم :

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله - ﷺ - مقبلاً قال : أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، وقال :

أكتب بيننا وبينكم كتابا .

فدعا الكاتب – وهو علي بن أبي طالب – (رضي الله عنه) فقال : اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ما ندري ما هو ، ولكن أكتب « باسمك اللهم » كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لا نكتبها ، إلا « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال النبي – ﷺ – اكتب : « باسمك اللهم ! » .

ثم قال : اكتب « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » .

فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك [1] عن البيت ، ولا

---

(١) ما منعناك .

قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله .

فقال النبي – ﷺ – اني رسول الله وان كذبتموني ، اكتب : « محمد بن عبد الله » ، فأمر علياً أن يمحوها ، فقال عليّ : لا والله لا أمحوها ، فقال رسول الله ﷺ : أرني مكانها ، فأراه مكانها ، فمحاها

فقال النبي – ﷺ – هذا ما قاضى عليه رسول الله ، على أن تخلوا بيننا وبين البيت ، فنطوف به .

فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب .

قال سهيل : وعلى أن لا يأتيك منا رجل ، وان كان على دينك رددته الينا ، فقال

المسلمون : سبحان الله ! كيف يردّ الى المشركين وقد جاء مسلما ؟ !

وبينا هم كذلك اذ جاء أبو جندل بن سهيل ، يرسف [1] في قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .

قال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه على أن ترده .

قال النبي – ﷺ – : إنا لم نقض الكتاب بعد .

قال : فوالله اذاً لا أقاضيك على شيء أبدا ، قال النبي – ﷺ – فأجزه لي .

قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال : بلى ، فافعل ، قال : ما أنا بفاعل .

---

(١) يرسف : جاء يتحامل برجليه مع القيود .

قال أبو جندل : يا معشر المسلمين ! أُردّ الى المشركين ، وقد جئت مسلما ، ألا ترون ما لقيت – وكان عذّب في الله عذاباً شديدا ، وردّه رسول الله – ﷺ .

وقد اصطلح الفريقان على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من أتى محمداً – ﷺ – من قريش بغير إذن وليه ، ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد – ﷺ – لم يرده عليه ، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد – ﷺ – وعهده ، دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

بلاء المسلمين في الصلح والعودة الى مكة :

فلما رأى المسلمون ما رأوه من الصلح والرجوع ، وما تحمّل عليه رسول الله - ﷺ - في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا يهلكون ، ووقع ذلك من نفوسهم كل موقع [1] ، حتى جاء عمر ابن الخطاب الى أبي بكر - رضي الله عنه - فقال : ألم يكن رسول الله - ﷺ - يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ ، قال : بلى ، فأخبرك أنك تأتيه العام ؟ ، قال : لا ، قال : فانك آتيه ومطوف به .

فلما فرغ رسول الله - ﷺ - من الصلح ، قام الى هديه ، فنحره ، ثم جلس ، فحلق

---

(١) يعني أثر فيهم تأثيراً كبيرا .

رأسه ، وعظم ذلك على المسلمين ، لأنهم خرجوا وهم لا يشكون في دخول مكة والعمرة ، ولكن لما رأوا رسول الله – ﷺ – قد نحر ، وحلق ، تواثبوا ينحرون ويحلقون .

صلح مهين أو فتح مبين :

ثم رجع الى المدينة ، وفي مرجعه أنزل الله تعالى :

« إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً (١)

قال عمر – رضي الله عنه – أو فتح هو يا

(١) سورة الفتح – ١ – ٣ .

رسول الله ؟ ، قال : نعم ! .

عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم :

ولما رجع الى المدينة ، جاءه رجل من قريش ، اسمه أبو بصير عتبة بن أسيد ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه الى الرجلين ، فخرجا به ، فخرج هارباً منهم ، حتى أتى سيف [1] البحر ، وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم ، الا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، لا يسمعون بعير لقريش خرجت الى الشام الا اعترضوا لها ،

---

(١) سيف البحر : ساحله .

فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش الى النبي – ﷺ – تناشده الله والرحم لما أرسل اليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن .

ودلّت الحوادث الأخيرة على أن صلح الحديبية الذي تنازل فيه رسول الله – ﷺ – لقبول كل ما ألحّت عليه قريش ، ورأوا فيه انتصاراً لهم ومكسبا [1] ، وتحمّله المسلمون في قوة ايمانهم وشدة طاعتهم للرسول – ﷺ – كان فتح باب جديد لانتصار الاسلام وانتشاره في جزيرة العرب بسرعة لم تسبق ، وكان باباً الى فتح مكة ، ودعوة ملوك العالم لقيصر وكسرى ومقوقس وأمراء العرب ، وصدق الله العظيم :

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير

(١) مصلحة ومنفعة .

لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون [1] »

اسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص :

وكان صلح الحديبية فتحاً للقلوب ، فدخل في الاسلام خالد بن الوليد ، الذي كان قائد الفرسان لقريش ، وبطل معارك عظيمة ، وقد سمّاه رسول الله — ﷺ — سيف الله وهو الذي أبلى في الله بلاءً حسنا ، وفتح على يده الشام ، ودخل عمرو بن العاص أحد كبار القادة والأمراء ، وفاتح مصر من بعد ، وقد قدما المدينة بعد صلح الحديبية ، فأسلما وحسن اسلامهما .

---

(١) سورة البقرة — ٢١٦ .

وأتاح هذا الصلح فرصة الإختلاط بين المسلمين والمشركين ، فاطّلع المشركون على محاسن الإسلام وعلى اخلاق المسلمين فلم يمضي على هذا الصلح عام كامل حتى دخل في الإسلام خلق كثير .

دعوة الملوك والأمراء الى الاسلام

دعوة وحكمة :

ولما تم الصلح ، وهدأت الأحوال ، كتب رسول الله - ﷺ - كتباً الى ملوك العالم وأمراء العرب ، يدعوهم فيها الى الاسلام ، والى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، واهتم اهتماماً كبيرا ، فاختار لكل واحد منهم رسولا يليق به ، وقيل له : انهم لا يقبلون كتاباً الا بخاتم ، فصاغ رسول الله - ﷺ - خاتماً حلقته فضة ، ونقش فيه « محمد رسول الله » .

تسليم هرقل للاسلام وامتناعه عنه :

ومن هؤلاء الملوك الامبراطور الرومي « هرقل » ، وامبراطور فارس كسرى ابرويز والنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر .

فأما هرقل والنجاشي والمقوقس ، فتأدبوا ورقّوا في جوابهم ، وقد أراد هرقل أن يتثبّت في أمر النبي – ﷺ – وبحث عمّن يستخبره في شأنه ، وصادف ذلك وجود أبي سفيان في غزّة ، فأحضر اليه – وقد جاء في تجارة – وكانت استفساراته استفسارات عاقل مجرب ، خبير بتاريخ الديانات ، وخصائص الأنبياء وسيرهم ، وشأن الأمم معهم وسنّة الله في أمرهم ، وصدقه أبو سفيان ،

شأن العرب الأولين ، حياء من أن يؤثر الناس عليه كذبا .

فلما سمع هرقل كل ذلك ، أيقن أنه نبي الله ، وقال : ان كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص [1] اليه ، لتجشّمت [2] لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، وأذن لعظماء الروم في القصر ، وأمر بأبوابه فغلقت ، ثم اطلع فقال : يا معشر الروم ! هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم ، وتبايعوا هذا النبي ، فنفروا وبادروا الى

---

(١) أخلص اليه : أي أصل اليه .

(٢) لتجشمت لقاءه : أي لتكلفت لقاءه .

الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الايمان ، قال : ردّوهم عليّ ، وقال : اني قلت مقالتي آنفا ، أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه .

فآثر الملك على الهداية ، ووقعت بينه وبين المسلمين في خلافة أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- حروب ومعارك ، كان فيها ذهاب ملكه وسلطانه .

أدب النجاشي والمقوقس :

وأما النجاشي والمقوقس ، فأكرما رسل رسول الله - ﷺ - وكان جوابهما رفيقاً رقيقا ، وأرسل المقوقس هدايا ، منها جاريتان ،

وكانت احداهما مارية أم ابراهيم بن رسول الله — ﷺ — .

غطرسة كسرى وعقابها :

وأما كسرى فارس ، فلما قرىء عليه الكتاب ، مزقه ، وقال : يكتب اليّ هذا وهو عبدي ، فبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فقال : مزّق الله ملكه ، وأمر « كسرى باذان » ، وهو حاكمه على اليمن ، باحضاره ، فأرسل « بأبويه » يقول له : ان ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك ، وقد بعثني اليك لتنطلق معي ، فأخبره رسول الله — ﷺ — بأن الله قد سلّط على كسرى ابنه « شيرويه »

وهكذا كان ، فمزّق الله ملكه ، وملّكه المسلمين ، وهدى أهل إيران للاسلام ، وكتب الى أمراء العرب ، فمنهم من أسلم ومنهم من امتنع .

غزوة خيبر

جائزة من الله :

ان الله — سبحانه وتعالى — بشّر أصحاب بيعة الرضوان — في الحديبية — بالفتح القريب ، والمغانم الكثيرة ، فقال :

« لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيما [1] » .

وكان مقدمة هذه الفتوح والمغانم غزوة

(١) سورة الفتح — ١٨ ، ١٩

خيبر ، فكانت خيبر مستعمرة [1] يهودية تتضمن قلاعاً حصينة ، وقاعدة حربية لليهود ، فأراد رسول الله – ﷺ – أن يستريح منهم ، ويأمن من جهتهم .

وكانت الشمال الشرقي للمدينة على بعد سبعين ميلاً منه .

جيش مُؤْمِن تحت قيادة نبي

فأقام رسول الله – ﷺ – بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرَّم ، ثم خرج في بقية المحرم الى خيبر ، وكان عامر بن الأكوع يرتجز في مسيره اليها ، فيقول :

(١) ما تملكته دولة في بلاد غير بلادها .

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصــدَّقنــا ولا صلَّــينــا

إنـا اذا قـوم بغـوا علينـا

وان أرادوا فتنـــة أَبينـــا

فانـزلـن سكينـــة علينـــا

وثبــت الأقـــدام ان لاقينا

وأقبل بجيشه ، وكانوا ألفاً وأربع مائة ، وكان معهم مائتا فرس ، ولم يأذن لمن تخلف عن الحديبية ، وخرجت عشرون امرأة من نساء الصحابة ، لمداواة المرضى ، وخدمة الجرحى والاسعاف [1] بالماء والطعام ، أثناء القتال .

ودعا رسول الله – ﷺ – في الطريق

---

(١) الاعانة والمساعدة .

بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق ، فأمر به فثرى ، فأكل ، وأكل المسلمون ، ودعا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما أشرف على خيبر وسأل الخير ، واستعاذ من شرها ، وشر أهلها ، وكان اذا غزا قوما ، لم يغزهم حتى يصبح ، فان سمع أذاناً أمسك ، وان لم يسمع أذاناً أغار ، فلما أصبح ، لم يسمع أذاناً ، فركب وركب القوم ، واستقبلوا عمّال خيبر غادين ، قد خرجوا بمساحيهم [1] وبمكاتلهم [2] ، فلما رأوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والجيش ، قالوا : محمد والخميس [3] معه ،

---

(١) المساحي : جمع مسحاة ، المجرفة من الحديد .

(٢) جمع مكتل ، وهي قفة كبيرة .

(٣) الخميس : الجيش .

فأدبروا هرّابا ، فقال رسول الله – ﷺ – : الله أكبر ! خربت خيبر ، إنا اذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين .

قائد منصور :

ونازل رسول الله – ﷺ – حصون خيبر ، وبدأ يفتتحها حصناً حصنا ، وكان أول حصن افتتح حصن ناعم ، افتتحه عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – وقد استعصى [١] على المسلمين ، وكان علي بن أبي طالب رمدا [٢] ، فقال رسول الله – ﷺ – : ليأخذن الراية غداً رجل يحبه الله ورسوله ، يفتح

---

(١) اشتد .

(٢) أي مصاباً بالرمد ، والرمد مرض يصيب العين فتهيج وتتألّم .

عليه ، وتطاول له كبار الصحابة –رضي الله عنهم– وكل منهم يرجو أن يكون صاحب ذلك ، ودعا عليا ، وهو يشتكي عينيه ، فأتى ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له ، فبرىء حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .

فقال علي – رضي الله عنه – : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا .

قال رسول الله– ﷺ – : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم الى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من أن يكون لك من حمر النعم .

بين أسد الله وبطل اليهود :

وأتى عليّ – رضي الله عنه – مدينة خيبر ، فخرج مَرْحَبٌ ، وهو الفارس المشهور ، يرتجز ، فاختلفا ضربتين ، فبدره عليّ بضربة ، ففلق مغفره ورأسه ، ووقع في الأضراس ، وكان الفتح .

عمل قليلا وأجر كثيرا :

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر ، كان في غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح ، سألهم : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي ، فوقع في نفسه ذكر النبي ، فأقبل بغنمه الى رسول الله – ﷺ – فقال : ماذا تقول ، وما تدعو

اليه ؟ ، قال : أدعو الى الاسلام ، وأن تشهد أن لا إله الا الله وأني رسول الله ، وأن لا تعبد الا الله ، قال العبد : فما لي ان شهدت وآمنت بالله - عز وجل - ؟ قال : لك الجنة ان مت على ذلك .

فأسلم ، ثم قال : يا نبي الله ! ان هذه الغنم عندي أمانة ، فقال رسول الله - ﷺ - : أخرجها من عندك ، وارمها بالحصباء ، فان الله سيؤدي عنك أمانتك ، ففعل فرجعت الغنم الى سيدها ، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله - ﷺ - في الناس ، فوعظهم ، وحضّهم على الجهاد ، فلما التقى المسلمون واليهود ، قتل - فيمن قتل - العبد الأسود ، أقبل رسول الله - ﷺ - على أصحابه

فقال : لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصلّ لله سجدة قط .

ما على هذا اتبعتك :

وجاء رجل من الأعراب الى النبي - ﷺ - فآمن به واتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله - ﷺ - شيئا ، فأقسمه له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه اليه ، فقال : ما هذا ؟ ، قالوا : قسم قسمه لك رسول الله - ﷺ - فأخذه ، فجاء به الى النبي - ﷺ - فقال : ما هذا يا رسول الله؟ ، قال : قسم قسمته

لك ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ههنا – وأشار الى حلقه – بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : ان تصدق الله يصدقك .

ثم نهضوا الى قتال العدوّ ، فأتى به الى رسول الله – ﷺ – وهو مقتول ، فقال : أهو هو ؟ ، قالوا : نعم ، قال : صدق الله ، فصدقه ، فكفنه النبي – ﷺ – في جبته ، ثم قدمه ، فصلى عليه ، وكان من دعائه له : اللهم هذا عبدك ، خرج مهاجراً في سبيلك ، قتل شهيداً وأنا عليه شهيد .

شرط البقاء في خيبر :

وافتتحت الحصون حصن بعد حصن ،

بعد قتال وحصار دام أياما ، حتى سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الصلح ، وأعطاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيبر ، على أن لهم الشطر من كل زرع وثمر ما بدا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقرهم ، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبعث اليهم عبدالله بن رواحة ، فيخرص عليهم ، ويجعل ذلك نصفين ، فيخيّرهم أن يأخذوا أيهما شاؤوا ، فيقولون بهذا قامت السماوات والأرض .

محاولة أثيمة لليهود :

وفي هذه الغزوة سمّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أهدت له زينب بنت الحرث اليهودية ، امرأة سلام بن مشكم ، شاة مشوية قد سمّتها ،

وسألت أي اللحم أحبّ اليه ؟ ، فقالوا : الذراع ، فأكثرت من السم في الذراع ، فلما انتهش من ذراعها ، أخبره الذراع بأنه مسموم ، فلفظ الأكلة .

وجمع اليهود ، ثم قال : هل أنتم صادقي عن شيء ان سألتكم عنه ؟ ، قالوا : نعم ، قال : أجعلتم في هذه الشاة سمّا ؟ ، قالوا : نعم ، قال : فما حملكم على ذلك ، قالوا : أردنا ان كنت كاذباً نستريح منك ، وان كنت نبياً لم يضرّك ، وجيء بالمرأة الى رسول الله - ﷺ - فقالت : أردت قتلك ، فقال : ما كان الله ليسلطك عليّ ، قالوا : ألا نقتلها ؟ ، قال : لا ، ولم يتعرّض لها ، ولم يعاقبها .

ولم يقتلها - ﷺ - أولا ، فلما مات

بشر بن البراء بن معرور الذي أكل من هذه الذراع ، قتلها .

فتوح ومغانم :

وبعد ما انتهى رسول الله — ﷺ — من أمر خيبر ، انصرف الى فدك ، ثم جاء الى وادي القرى ، ودعا رسول الله — ﷺ — الى الاسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا ، أحرزوا أموالهم ، وحقنوا [1] دماءهم ، وحسابهم على الله .

وأعطى اليهود من غد ما بأيديهم ، وغنم المسلمون أموالا ، وقسم رسول الله — ﷺ — ما أصاب على أصحابه ، بوادي القرى ، وترك

---

(١) صانوا وعصموا .

الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها .

ولما بلغ يهود تيماء ما واطأ عليه رسول الله – ﷺ – على أهل خيبر وفدك ووادي القرى ، صالحوا رسول الله – ﷺ – وأقاموا بأموالهم ، وانصرف رسول الله – ﷺ – راجعاً الى المدينة .

عمرة القضاة :

ولما كان العام المقبل ، وذلك في سنة سبع ، قدم رسول الله – ﷺ – والمسلمون ، وخلّى قريش بينه وبين مكة ، وأقفلوا بيوتهم ، وطلعوا على الجبل ، وأقام بمكة ثلاثا ، واعتمر ، وهو قوله تعالى :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ،

لتدخلنّ المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ، محلّقين رؤوسكم ومقصّرين ، لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا [1] » .

التنافس في حضانة البنت :

وقد تغيرت النفوس والعقول بتأثير الاسلام تغيراً عظيما ، فعادت البنت التي جرت عادة وأدها في الجاهلية حبيبة يتنافس في كفالتها وتربيتها المسلمون .

لما أراد النبي – ﷺ – الخروج من مكة ، تبعته أمامة ابنة حمزة ، تنادي يا عم ! يا عم ! فتناولها علي – رضي الله عنه – فأخذ بيدها ،

(١) سورة الفتح – ٢٧ .

وقال لفاطمة – عليها السلام – دونك ابنة عمك ، فحملتها ، فاختصم فيها عليّ وزيد وجعفر ، فقال عليّ : أنا أخذتها ، وهي ابنة عمي ، وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد : ابنة أخي ، فقضي بها النبي – ﷺ – لخالتها ، وقال : الخالة بمنزلة الأم ، وقال لعليّ – رضي الله عنه – أنت منيّ وأنا منْك وقال لجعفر : أشبهت خَلقي وخُلقي ، وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا .

غزوة مؤتة

قتل سفير المسلمين وعقوبته :

بعث رسول الله - ﷺ - الحارث بن عمير الأزدي بكتابه الى شرحبيل بن عمرو الغسّاني ، حاكم « بصرى » التابع لقيصر ملك الروم ، فأوثقه رباطا ، ثم قدّمه ، فضرب عنقه ، ولم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء عند الملوك والأمراء ، وكان فيه خطر عظيم على الرسل والسفراء ، واهانة شديدة للمرسل والرسالة ، وكان لا بد من تأديب هذا المعتدي .

أول جيش في أرض الروم :

فلما بلغ رسول الله – ﷺ – الخبر ، أراد يبعث بعثا ، الى بصرى وذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة ، فتجهّز الناس ، وهم ثلاثة آلاف ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وهو مولى رسول الله – ﷺ – وفي الجيش كبار المهاجرين والأنصار ، وقال : ان أصيب فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فان أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة ، فلما حضر خروجهم ، ودّع الناس أمراء رسول الله – ﷺ – وسلموا عليهم ، وكان أمامهم سفر طويل شاق ، وعدوّ ذو شوكة .

ومضى الجيش ، حتى نزل بمعان ،

وبلغ المسلمين أن هرقل بالبلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضمّ اليهم جمع كثير من قبائل العرب ، فأقاموا على « معان » ليلتين ينظرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب الى رسول الله - ﷺ - فنخبره بعدد عدوّنا ، فاما أن يُمدّنا بالرجال ، واما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة :

وشجع الناس عبد الله بن رواحة ، فقال : يا قوم ! والله ان الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون (الشهادة) ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا به الله ، فانطلقوا ، فانما هي

إحدى الحسنيين ، إما ظفر واما شهادة ، فمضى الناس .

قتال المستميتين وصولة الأسود :

فلما كانوا بتخوم البلقاء ، لقيتهم الجموع من الروم والعرب ، ودنا العدوّ ، وانحاز المسلمون الى قرية ، يقال لها « مؤتة » والتقى الناس ، واقتتلوا .

وقاتل زيد بن حارثة - رضي الله عنه - براية رسول الله - ﷺ - حتى استشهد ، وقد أخذت الرماح منه كل مأخذ ، ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها ، حتى اذا أرهقه القتال ، اقتحم عن فرسه ، فعقرها ، ثم قاتل فقطعت يمينه ، فأخذ الراية بيساره ، فقطعت يساره ،

فاحتضن الراية بعضديه ، حتى قتل ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ، ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ، كلها في الأمام .

فلما قتل جعفر ، أخذ عبد الله بن رواحة الراية ، وتقدم بها ، ونزل عن فرسه ، وأتاه ابن عم له بعظم عليه بعض لحم ، وقال : شدّ بهذا صلبك ، فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت فأخذه بيده ، وأخذ منه بفمه يسيرا ، ثم ألقاه من يده ، وأخذ سيفه ، فتقدم وقاتل حتى قتل .

قيادة خالد الحكيمة :

واصطلح الناس بعده على خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فأخذ الراية ، ودافع القوم ، وكان شجاعاً حكيما ، يعرف سياسة الحرب ، فانحاز بالجيش الاسلامي الى الجنوب ، وانسحب العدو نحو الشمال ، وجنّ الليل فانصرف بالناس ، وكلا الفريقين اغتنم السلامة ، ورأى المصلحة في عدم التحرّش [1] ومتابعة القتال ، وتهيّب الروم المسلمين بحكمة خالد ، وتقاعسوا .

خبر عيان لا بيان :

وبينما كان المسلمون يخوضون المعركة ،

---

(١) التحرش . التعرض .

كان رسول الله - ﷺ - يخبر أصحابه في المدينة ، بما يجري في المعركة ، يقول أنس ابن مالك - رضي الله عنه - : ان رسول الله - ﷺ - نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس ، قبل أن يأتيهم خبر ، فقال : أخذ الرّاية زيد ، فأصيب ، ثم أخذها جعفر ، فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة ، فأصيب وعيناه تذرفان [1] ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم .

الطيار ذو الجناحين :

وقال في جعفر ان الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ، ولذلك لقب

(١) تسيلان بالدموع .

بجعفر الطيار وذي الجناحين.

كرّارون لا فرّارون :

ولما دنا الجيش من حول المدينة ، تلقّاهم رسول الله – ﷺ – والمسلمون ، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون : يا فرار ! فررتم في سبيل الله ، ويقول رسول الله – ﷺ – : ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار ، ان شاء الله تعالى .

فتح مكة

تمهيد لفتح مكة :

ولما تم أمر الله في دينه وفي عباده ، أراد أن يدخل رسوله ، والمسلمون مكة ، ويطهروا الكعبة من الأوثان ، فتكون مباركاً وهدى للعالمين ، ويعيدوا مكة الى ما كانت عليه فتكون مثابةً للناس وأمنا .

نقض بني بكر وقريش الحلف :

وقد هيّأ الله لذلك أسبابا ، وساعدت عليها قريش .

كان قد تقرر في صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله - ﷺ - وعهده ، فعل ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم ، فعل ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله - ﷺ - وعهده .

وكان بين بني بكر وبين خزاعة عداء متوارث ، وجاء الاسلام فحجز بينهم وتشاغل الناس بشأنه ، فلما كانت الهدنة ، أراد بنو بكر أن ينتهزوا هذه الفرصة ، ليصيبوا من خزاعة الثأر القديم ، فبيت نفر من بني بكر خزاعة ، وهم على ماء لهم ، فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتتلوا .

وأعانت قريش بني بكر بالسلاح ،

وقاتل معهم أشراف من قريش مستخفين ليلا ، حتى حازوا [1] خزاعة الى الحرم ، فلما انتهوا اليه ، قالت بنو بكر لبعض رجالهم : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك إلهك ! فقال : لا إله اليوم ! يا بني بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلا تجدون هذه الفرصة بعد ذلك .

الاستغاثة برسول الله ﷺ

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي ، وقدم على رسول الله - ﷺ - المدينة فوقف عليه ، وأنشد ابياتا ، ينشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة ، وسأله النصر ، والنجدة ، ويخبره بأن قريشاً أخلفوه الموعد ، ونقضوا

(١) جعلوها تنحاز إلى الحرم وتلتجىء إليه .

ميثاقه المؤكد ، وأنهم بيتوا وهم على ماء لهم ، وقتلوهم ركَّعاً وسجَّدا ، فقال رسول الله - ﷺ - نُصرتَ يا عمرو بن سالم .

محاولة قريش لتجديد العهد :

وقال رسول الله - ﷺ - للناس حين بلغه الخبر : « كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يشد العقد ويزيد في المدة » ، وهكذا كان ، فرهبت قريش مما صنعت .

ايثار النبي على الآباء والأبناء :

وقدم أبو سفيان على رسول الله - ﷺ - المدينة ، ودخل على ابنته « أم حبيبة » - زوج النبي - ﷺ - فلما ذهب ليجلس على فراش

رسول الله — ﷺ — طوته عنه ، فقال : يا بنيتي ! ما أدري أرَغِبْتِ بي عن هذا الفراش ، أم رغبتِ به عنّي ؟ ، قالت : بل هو فراش رسول الله — ﷺ — وأنت مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله — ﷺ — ، قال : والله لقد أصابك يا بنيتي بعدي شرّ .

حيرة أبي سفيان واخفاقه :

وأتى أبو سفيان رسول الله — ﷺ — فكلّمه ، فلم يرد عليه شيئا ، ثم ذهب الى أبي بكر ، فكلّمه أن يكلّم له رسول الله — ﷺ — ، فقال : ما أنا بفاعل ، وراود (١)

(١) أي راجعهم وحاول ارضاءهم بكل حيلة .

عمر وعليّاً وفاطمة على ذلك ، فلم يجبه أحد الى ذلك ، وقالوا : ان الأمر أجل منه ، حتى احتار في أمره .

التأهّب لمكة :

وأمر رسول الله - ﷺ - الناس بالجهاز ، واستعان على أمره بالكتمان ثم أعلم الناس أنه سائر الى مكة ، وأمرهم بالجدّ والتجهّز ، وقال : اللهم ! خذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نَبْغَتَها (١) في بلادها ، وخرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف وذلك على رأس ثمان سنين ، ومضى رسول الله - ﷺ - حتى نزل « مرّ الظهران » وعمّى

(١) نبغتها : أي نفاجئها ونأتيها فجأة .

الله الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وارتقاب .

العفو عمّن ظلم :

ولقي رسول الله - ﷺ - في الطريق ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فأعرض عنه ، لما كان يلقاه منه من شدة الأذى والهجو ، فشكا ذلك الى عليّ ، فقال له : ائت رسول الله - ﷺ - من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا ، وان كنا لخاطئين » ، فانه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا ، ففعل ذلك ، فقال له رسول الله - ﷺ - : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر

الله لكم وهو أرحم الراحمين » ، وحسن إسلامه بعد ذلك ، وما رفع رأسه الى رسول الله – ﷺ – منذ أسلم حياء منه .

أبوسفيان بن حرب بين يدي رسول الله ﷺ

وأمر رسول الله – ﷺ – الجيش ، فأوقدوا النيران ، وخرج أبو سفيان بن حرب يتجسّس الأخبار – وهو يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكر – وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج من مكة قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ولحق بالعسكر ، فعرف صوت أبي سفيان ، وقال : هذا رسول الله – ﷺ – في الناس ، وإصباح قريش ! فأركبه في عجز بغلته ، وخشي عليه أن

يدركه أحد المسلمين ، فيقتله ، وأتى به رسول الله - ﷺ - .

فلما رآه رسول الله - ﷺ - قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله الاّ الله ؟ ، قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد .

قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ .

قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئا .

قال العباس : ويحك ! أسلم ، واشهد

أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق .

عفو عام وأمن بسيط :

ووسّع رسول الله — ﷺ — في الأمن والعفو ، حتى أصبح أهل مكة لا يهلك منهم الا من زهد في السلامة وكره الحياة ، فقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ونهى رسول الله — ﷺ — جيشه عن أن يستخدموا السلاح عندما يدخلون مكة على أي انسان الا من اعترضهم وقاومهم ، وأمر بأن يعفّ الجيش من أموال أهل مكة وممتلكاتهم ، وأن يكفوا أيديهم عنها .

أبو سفيان أمام موكب الفتح :

وأمر رسول الله - ﷺ - عباس بن عبد المطلب أن يجلس أبا سفيان حيث تمر به كتائب [1] الايمان .

وتحركت كتائب الفتح كأنها بحر يموج ، وكانت القبائل تمرّ على راياتها ، كلما مرّت قبيلة سأل أبو سفيان عباساً عنها وعن اسم القبائل ، فيقول : ما لي ولبني فلان ، حتى مرّ رسول الله - ﷺ - في كتيبة خضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم الا الحدق [2] من الحديد ، فقال : سبحان الله !

---

(١) جمع كتيبة ، وهي القطعة من الجيش .

(٢) الحدق جمع حدقة وهي السواد المستدير وسط العين والمراد هنا العين مطلقاً .

يا عباس من هؤلاء؟ قال : هذا رسول الله - ﷺ - في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال : يا أبا سفيان ! انها النبوة ، قال : فنعم ، إذاً .

وقام أبو سفيان فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ! هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قِبل [1] لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، ما تغني عنّا دارك؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد .

---

(١) قبل (بكسر الأول وفتح الثاني) طاقة .

دخول خاشعٍ متواضعٍ لا دخول فاتحٍ متعال :

ودخل رسول الله - ﷺ - مكة ، وهو واضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى ان ذقنه ليكاد يمسّ واسطة الرحل ، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح .

ورفع - في دخوله مكة فاتحاً - كل شعار من شعائر العدل والمساواة والتواضع والخضوع ، فأردف أسامة بن زيد ، وهو ابن مولى رسول الله - ﷺ - ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم ، وأبناء أشراف قريش ، وهم كثير .

وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان ، سنة ثمان من الهجرة .

وكلمه رجل يوم الفتح ، فأخذته الرعدة ، فقال : « هوّن عليك ، فاني لست بملك وانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد [1] » .

مرحمة لا ملحمة :

ولما مرّ سعد بن عبادة بأبي سفيان في كتيبة الأنصار ، قال له : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الحرمة ، اليوم أذلّ الله قريشا ، فلما حاذاه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في كتيبته ، شكا اليه ذاك أبو سفيان ، قال : يا رسول الله ! ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ؟ ، قال : كذا وكذا .

فاستنكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مقالة سعد ،

---

(١) هو اللحم المملوح المجفف في الشمس .

وقال : « بل اليوم يوم المرحمة اليوم يعز الله قريشا ، ويعظم الله فيه الكعبة » ، وأرسل الى سعد ، فنزع منه اللواء ، ودفعه الى قيس ابنه ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد اذ صار الى ابنه .

مناوشات قليلة :

وكانت مناوشة قليلة بين صفوان بن أمية وعِكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ، وبين أصحاب خالد بن الوليد ، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلا ، ثم انهزموا وكان رسول الله – ﷺ – قد عهد إلى أمرائهم من المسلمين حين يدخلون مكة : أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

تطهير الحرم من الأوثان والأصنام :

ولما نزل رسول الله – ﷺ – واطمأن الناس ، خرج حتى جاء البيت ، فطاف به ، وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاث مائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : «جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً ، جاء الحق وما يبدىء وما يعيد ، والأصنام تتساقط على وجوهها .

ورأى في الكعبة الصور والتماثيل ، فأمر بالصور ، وبالتماثيل فكسرت .

اليوم يوم بر ووفاء :

ولما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ، ودخل

وكان قد طلب منه المفتاح يوماً قبل أن يهاجر الى المدينة ، فأغلظ له القول ، ونال منه ، فحلم عنه ، وقال : يا عثمان ! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي ، أضعه حيث شئت ، فقال : لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت ، فقال : بل عمرت وعزّت يومئذ ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعا ، وظن أن الأمر سيصير الى ما قال .

فلما خرج من الكعبة ، قام اليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة بيده- ﷺ - ، قال لرسول الله- ﷺ - : اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، فقال رسول الله - ﷺ - : أين عثمان بن طلحة ؟ ، فدعي له ، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ! اليوم

يوم برّ ووفاء ، خذوها خالدة تالدة [1] لا ينزعها منكم الا ظالم .

الإسلام دين توحيد ووحدة :

وفتح رسول الله – ﷺ – باب الكعبة ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع ، فأخذ بعضادتي [2] الباب وهم تحته ، فقال : « لا إله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة [3] ومال أو دم ، فهو تحت قدميّ هاتين ، الا سدانة البيت وسقاية الحاج » .

---

(١) تالده . خذوها موروثة من القديم .
(٢) عضادتا الباب . خشبتاه من جانبيه .
(٣) مأثرة . مكرمة ومفخرة تؤثر وتروى .

يا معشر قريش ! ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

نبي المحبة ورسول الرحمة

ثم قال رسول الله — ﷺ — : يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ .

قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : فاني أقول لكم كما قال يوسف لاخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وأمر بلالا أن يصعد، فيؤذن على الكعبة، ورؤساء قريش وأشرافهم يسمعون كلمة الله تعلو، ومكة ترتجّ بالأذان، ودخل رسول الله - ﷺ - دار أم هاني بنت أبي طالب، فاغتسل، وصلّى ثماني ركعات صلاة الفتح، شكراً لله عليه.

لا تمييز في تنفيذ حدود الله:

وسرقت امرأة من بني مخزوم - اسمها فاطمة - في هذه الغزوة، ففزع قومها الى أسامة بن زيد، لمكانته عند رسول الله - ﷺ - يستشفعونه، فلما كلّم رسول الله - ﷺ - تلوّن (١) وجهه، وقال: أتكلّمني

(١) تغيّر

في حدّ من حدود الله؟ ، قال أسامة استغفر لي يا رسول الله ! .

فلما كان العشى ، قام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطيبا ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، فانما هلك الناس قبلكم ، انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف ، أقاموا عليه الحدّ ، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

ثم أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بتلك المرأة ، فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك .

بيعة على الاسلام :

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله

- ﷺ - على الاسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله ، فيما استطاعوا .

ولما فرغ من بيعة الرجال ، بايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان متنقّبة[(١)] متنكّرة ، لما كان من صنيعها بحمزة ، وعرفها رسول الله - ﷺ - بحديثها الجريء ، وأسلمت وبايعت .

المحيا محياكم والممات مماتكم :

ولما فتح الله مكة على رسوله ، وهي بلده ووطنه ومولده ، تحدّث الأنصار فيما بينهم ، فقالوا : ان رسول الله - ﷺ - قد فتح الله

(١) يعني مرتدية نقابها .

عليه أرضه وبلده ، فهو مقيم بها ، لا يعود الى المدينة .

وسأل رسول الله - ﷺ - الأنصار عن حديثهم ولا يعرفه غيرهم ، فاستحيوا ، ثم أقرّوا به ، فقال : معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم .

إزالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية :

وبث رسول الله - ﷺ - سراياه الى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها ، منها اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكة :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنماً إلاّ كسره ، وبعث

رجالا من أصحابه الى القبائل، فهدموا أصنامها.

وقام رسول الله - ﷺ - في مكة خطيبا، فأعلن حرمة مكة الى يوم القيامة: «لا يحل لأمرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما، أو يعضد[1] بها شجرة»، وقال: «لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي»، ثم انصرف راجعاً الى المدينة.

أثر فتح مكة:

وكان لفتح مكة أثر عميق في نفوس العرب فشرح الله صدر كثير منهم للاسلام، وصاروا

(١) يعضد: يقطع.

يدخلون فيه أرسالا ، وصدق الله العظيم :

« اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا » .

غزوة حنين

اجتماع هوازن :

وبعد أن تم فتح مكة ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، أطلق العرب السهم الأخير في كنانتهم على الاسلام والمسلمين .

وكانت هوازن قوة كبيرة بعد قريش ، وكان بينها وبين قريش تنافس ، فلم تخضع لما خضعت له قريش .

وقام مالك بن عوف النصري سيد هوازن ، فنادى بالحرب ، واجتمع اليه مع هوازن ثقيف كلها ، وأجمع السير الى

رسول الله – ﷺ – ، وحطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، ليثبتوا ويدافعوا عن الأهل والعرض .

وخرج رسول الله – ﷺ – ومعه ألفان من أهل مكة ، ومنهم من هو حديث العهد بالاسلام ، ومنهم من لم يسلم ، وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة ، فبلغ عددهم الى ما لم يبلغه في غزوة قبل ذلك ، حتى قال أناس من المسلمين لن نُغْلَب اليوم من قلة ، وأعجبتهم كثرة الناس .

في وادي حنين :

واستقبل المسلمون وادي حنين ، وذلك في عاشر شوال ، سنة ثمان ، وهم ينحدرون

فيه انحداراً في ظلام الصبح ، وكانت هوازن قد سبقتهم الى الوادي ، وكمنوا لهم في شعابه فما راع المسلمين الا أن رشقوهم بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكانوا قوماً رماة .

وانشمر عامة المسلمين راجعين ، لا يلوي منهم أحد على أحد .

وكانت فترة حاسمة ، يوشك أن تدور الدائرة على المسلمين ، فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك وكانت شبيهة بما وقع يوم أُحد ، حين طار في الناس أن النبي قد قتل ، وانحسر عنه المسلمون .

الفتح والسكينة :

ولما تم ما أراده الله من تأديب المسلمين

الذين أعجبتهم الكثرة ، وأذاقهم الله مرارة الهزيمة بعد حلاوة الفتح ، ردّ لهم الكرّة على الأعداء ، وأنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وكان رسول الله – ﷺ – واقفاً في موقفه ، على بغلته الشهباء [(١)] غير وجل ولا هياب ، وقد بقي معه نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، والعباس بن عبد المطلب ، أخذ بِحَكَمِة [(٢)] بغلته ورسول الله – ﷺ – يقول :

« أنــا النــبي لا كـــذب
أنــا ابن عــبد المطــلب »

ولما استقبلته كتائب المشركين ، أخذ

---

(١) البيضاء .

(٢) الحكمة : هي حديدة تكون في أنف الفرس وحنكه ، تمنعه عن مخالفة راكبه .

قبضة من تراب ، ورمى بها الى عيون الأعداء الى البعد ، فملأت أعين القوم .

ولما رأى انشغال الناس بأنفسهم ، قال : يا عباس ! أصرخ : يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة ! فأجابوا : لبيك ، لبيك ، -وكان رجلا صيتا- فيؤمّ الرجل الصوت ، ويقتحم عن بعيره ، ويأخذ سيفه وترسه ، حتى ينتهي الى رسول الله- ﷺ -حتى اذا اجتمع اليه منهم طائفة ، استقبلوا الناس فاقتتلوا ، وأشرف رسول الله- ﷺ - في ركائبه .

واجتلد الناس ، فما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأساري مكتّفين عند رسول الله- ﷺ - ، وأنزل الله ملائكته

بالنصر ، فامتلأ بهم الوادي ، وتمت هزيمة هوازن ، وذلك قوله تعالى :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حُنين ، اذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبت ، ثم ولّيتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لّم تروها ، وعذّب الذين كفروا وذلك جزآء الكافرين [1] » .

---

(١) سورة التوبة — ٢٥ ، ٢٦

غزوة الطائف

فلول ثقيف :

وقدم فلول ثقيف الطائف ، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتها ، ورمّوا حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة ، وأعدّوا للحرب عدتها ، فسار رسول الله – ﷺ – اليهم ومضى حتى نزل قريباً من الطائف ، فضرب به عسكره ، وكان العسكر قريباً من حائط الطائف ، ولم يقدروا على أن يدخلوه ، فقد أغلقوه دونهم ، ورمت ثقيف المسلمين بالنبل رمياً شديدا ، كأنه رِجْلُ جراد ،

وكانوا رماة .

حصار الطائف :

فنقل العسكر الى مكان آخر ، وحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة ، وقاتلهم قتالا شديداً وتراموا بالنبل ، واستخدم رسول الله — ﷺ — في هذا الحصار ، المنجنيق [1] لأول مرة ، واشتدّ الحصار ، وقتل رجال من المسلمين بالنبل .

الرحمة في ميدان الحرب :

ولما ضاق الحصار ، وطالت الحرب ، أمر رسول الله — ﷺ — بقطع أعناب ثقيف ، وهي مما يعتمدون عليها في معاشهم ، ووقع

---

(١) المنجنيق (بفتح الميم والجيم وسكون النون) . آلة ترمى بها الحجارة .

الناس فيها يقطعون ، فسألوه أن يدعها لله ، وللرحم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاني أدعها لله وللرحم .

ونادى منادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أيما عبد نزل من الحصن ، وخرج الينا فهو حرّ ، فخرج منهم بضعة عشر رجلا .

ولم يؤذن لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في فتح الطائف ، فأمر عمرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - فأذّن في الناس بالرحيل ، فضجّ الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاغدوا على القتال ، فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : انا قافلون غداً ان شاء الله ، فسرّوا .

رفع الحصار :

ولم يؤذن لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – في فتح الطائف ، وأراد أن يدخلوا في الاسلام طائعين ، فأذن في الناس بالرحيل .

سبايا حنين ومغانمها :

ونزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الجعرانة فيمن معه من الناس ، واستأنى بهوازن ، أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة ، ثم بدأ بالأموال ، فقسمها ، وأعطى المؤلَّفة قلوبهم أول الناس .

ردّ السبايا على هوازن :

وقدم وفد هوازن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

وهم أربعة عشر رجلا ، فسألوه أن يمنّ عليهم بالسبي والأموال ، فقال : ان معي من ترون ، وأن أحب الحديث الى أصدقه فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟ .

قالوا : ما كنا نعدل بالأبناء والنساء شيئا ، وقال : اذا صليت الغداة ، فقوموا ، فقولوا : إنا نستشفع برسول الله – ﷺ – الى المؤمنين ونستشفع بالمؤمنين الى رسول الله – ﷺ – أن يردّ علينا سبينا ، فلما صلى الغداة ، قاموا ، فقالوا ذلك فقال رسول الله – ﷺ – : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسأسأل لكم الناس ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله – ﷺ – .

وأبى ثلاثة من بني تميم وبني فزارة وبني سليم أن يتنازلوا عن سبيهم ، فقال رسول الله — ﷺ — ان هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت بهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئا ، فمن كان عنده منهن شيء ، فطابت نفسه بأن يردّه فسبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه ، فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض ، من أول ما يفيىء الله علينا .

فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله — ﷺ — ، فقال : انا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض ، فارجعوا ، حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ولم يتخلف منهم أحد ، وكسا

رسول الله – ﷺ – السبي قبطية [1] قبطية .

رقة وكرم :

وكان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه الى رسول الله – ﷺ – الشيماء بنت حليمة السعدية أخت رسول الله – ﷺ – من الرضاعة ، وعنفوا عليها في السوق وهم لا يدرون ، فقالت للمسلمين : تعلمون والله اني لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها الى رسول الله – ﷺ – .

ولما انتهت الشيماء الى رسول الله – ﷺ – قالت : يا رسول الله ! اني اختك من الرضاعة ، قال ما علامة ذلك ؟ ، قالت :

---

(١) قبطية : بضم القاف ، وهي ثياب من مصر رقيقة بيضاء .

عضة عضضتنيها في ظهري ، وأنا متوركتك [1] ، وعرف رسول الله - ﷺ - العلامة ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، وخيّرها ، وقال : ان أحببت فعندي محببة مكرمة ، وان أحببت أن أمتعك وترجعي الى قومك فعلت ، فقالت : بل تمتعني وتردني الى قومي ، ومتعها رسول الله - ﷺ - فأسلمت ، وأعطاها رسول الله - ﷺ - ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشاة .

طائعون لا كارهون :

ولما ارتحل المسلمون من الطائف ، واستقبلوا ، قال رسول الله ﷺ : قولوا :

(١) يعنى حاملتك على وركي .

آئبون ، تائبون ، عابدون لربنا ، حامدون ، قيل يا رسول الله ! ادُع الله على ثقيف ، قال : اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم .

لحق عروة بن مسعود الثقفي ، وأدرك رسول الله ﷺ قبل أن يدخل المدينة ، فأسلم ، ورجع يدعو قومه الى الاسلام ، وكان محبباً اليهم ، صاحب منزلة فيهم ، فلما دعاهم الى الاسلام ، وأظهر عليهم دينه ، رموه بالنبل ، فقتل شهيدا .

وأقام ثقيف بعد قتله أشهرا ، ثم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا ، فأرسلوا وفداً الى رسول الله ﷺ .

لا هوادة مع الوثنية :

وقدموا على رسول الله - ﷺ - وضرب عليهم قبّة [1] في ناحية مسجده ، وأسلموا وسألوا رسول الله - ﷺ - أن يدع لهم اللاَّت ، لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله - ﷺ - عليهم ، وما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم رسول الله - ﷺ - حتى سألوا شهراً واحداً بعد قدومهم ، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة - وهو من قومهم - يهدمانها وسألوه أن يعفيهم من الصلاة ، فقال : لا خير في دين لا صلاة فيه .

(١) هي بيت صغير من الخيام .

ولما فرغوا من أمرهم وتوجّهوا الى بلادهم راجعين ، بعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، فهدمها المغيرة ، وانتشر الاسلام في ثقيف ، حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم .

غزوة تبوك

كان العرب لا يحلمون بغزو الروم والزحف عليهم ، بل كانوا يرون أنفسهم أصغر من ذلك .

وقد كان الروم لا يزالون يذكرون غزوة مؤتة ، التي لم يقضوا منها حاجة في نفوسهم ولم يشفوها .

ورأى رسول الله - ﷺ - أن يتقدم بجيش المسلمين الى بلاد الروم ويدخل فيها قبل أن تدخل الجيوش الرومية حدود العرب ، وتتحدّى مركز الاسلام .

زمن الغزوة :

وكانت هذه الغزوة في رجب سنة تسع « غزاها رسول الله – ﷺ – في حرّ شديد ، حين طابت الثمار والظلال ، واستقبل سفراً بعيدا ، ومغاراً [١] ، وعدواً كثيرا ، فجلّى [٢] للمسلمين أمرهم ، ليتأهّبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، وكان الزمن زمن عسرة الناس ، وجدب البلاد » .

وتعلّل المنافقون بعلل ، وكرهوا الخروج مع رسول الله – ﷺ – اشفاقاً من العدو القوي القاهر ، وفراراً من الحرّ الشديد ، وزهادة في الجهاد ، وشكّاً في الحق ، وفي

---

(١) فلاة لا ماء فيها .

(٢) فأوضح .

ذلك يقول الله تعالى : « فرح المخلَّفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون »[1] .

تنافس الصحابة في الجهاد والمسير :

وجدّ رسول الله - ﷺ - في سفره ، وأمر الناس بالجهاز ، وحضّ أهل الغنى على النفقة في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى عدداً من المسلمين الذين لا يملكون زاداً ولا راحلة ، واحتسبوا ، وجهّز عثمان ابن عفان جيش العسرة ، وأنفق ألف دينار ،

(١) سورة التوبة - ٨١ .

ودعا له رسول الله – ﷺ – .

مسير الجيش الى تبوك :

خرج رسول الله – ﷺ – في ثلاثين ألفاً من الناس ، من المدينة الى تبوك وكان أكبر جيش خرج به في غزوة .

ونزل بـ « الحجر » ديار ثمود ، وأخبرهم بأنها ديار المُعَذَّبين وقال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم الا وأنتم باكون ، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم » .

وأصبح الناس ولا ماء لهم ، فشكوا ذلك الى رسول الله – ﷺ – فدعا ، فأرسل الله – سبحانه – سحابة ، فأمطرت ، حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

عودة الرسول الى المدينة :

ولما انتهى رسول الله – ﷺ – الى تبوك ، أتاه أمراء من العرب ، مقيمون بالحدود ، فصالحوا رسول الله – ﷺ – وأعطوه الجزية ، وكتب لبعضهم رسول الله – ﷺ – كتاب أمن فيه شرط كفالة الحدود ، وتأمين المياه والطرق والضمان لسلامة الفريقين .

وهنا بلغ أمر انسحاب الروم وعدولهم عن فكرة الزحف واقتحام الحدود ، فلم ير رسول الله – ﷺ – محلاً لتتبعهم داخل بلادهم ، وقد تحقق الغرض .

وأقام رسول الله – ﷺ – بـ « تبوك » بضع عشرة ليلة ، ثم انصرف قافلاً الى المدينة .

ابتلاء كعب بن مالك ونجاحه فيه :

وكان من بين من تخلف عن هذه الغزوة : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال ابن أمية ، وكانوا من السابقين الأولين ، ولهم حسن بلاء في الاسلام ، وكان مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ممن شَهِدا بدرا ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من خلقهم وعادتهم ، ولم يكن ذلك الا من حكمة إلهية ، وتمحيصاً لأنفسهم ، وتربية للمسلمين ، وانما هو التسويف ، وضعف الارادة ، والاعتماد الزائد على الوسائل الموجودة . .

ونهى رسول الله - ﷺ - عن كلامهم ، وما كان من المسلمين الا السمع والطاعة ،

فاجتنبهم الناس ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة ، وكان كعب بن مالك يخرج فيشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف في الأسواق ولا يكلمه أحد ، ولم يزده هذا العتاب الا رسوخاً في المحبة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعدّى الى أزواج هؤلاء الثلاثة ، فأمروا أن يعتزلوهنّ ففعلوا .

وفي هذا الحال دعا ملك غسان كعب ابن مالك الى عاصمته ليكرمه وينعم عليه فجاءه رسوله ودفع اليه كتاباً منه ، فما كان من كعب الاّ أن قصد به تنوراً ورماه فيه .

ولما تمّ ما أراده الله من تمحيص هؤلاء الثلاثة المؤمنين ، وقد ضاقت عليهم أنفسهم ،

وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ، أفرج عنهم وأنزل توبتهم من فوق سبع سماوات ، فقال :

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، انه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من الله الاّ اليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التّواب الرحيم [1] » .

---

(١) سورة التوبة – ١١٧ ، ١١٨ .

غزوة تبوك آخر غزوة :

وبغزوة تبوك انتهت الغزوات النبوية ، التي بلغ عددها سبعاً وعشرين غزوة ، والبعوث والسرايا ، التي بلغ عددها ستين –ولم يكن في كلها قتال ، ولم تتجاوز قتلاها كلها ١٠١٨ قتيلاً من الفريقين ، وكانت حاقنة لدماء لا يعلم عددها الا الله ، باسطة الأمن في ارجاء الجزيرة ، حتى استطاعت الظعينة أن ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً الا الله » . .

أول حجّ في الاسلام ونزول البراءة :

وفرض الحج سنة تسع ، وبعث رسول

الله - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر أميراً للحج في هذه السنة ، ليقيم للمسلمين حجهم ، وخرج مع أبي بكر من أراد الحج من المسلمين في ثلاث مائة رجل من المدينة ، ودعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب ، فقال له : أخرج وأذّن في الناس يوم النحر أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

عام الوفود

تقاطر الوفود الى المدينة :

وبعد أن فتح الله مكة ، وعاد نبيّه من تبوك ، سالماً غانما ، تقاطرت الوفود الى مركز الاسلام ، وكانت تعود الى مواطنها مع حماس في الدعوة الى الاسلام ، وكراهة شديدة للوثنية وآثارها ، والجاهلية وشعائرها .

وقدم ضمام بن ثعلبة وافداً عن بني سعد ابن بكر ، ورجع الى قومه داعيا ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزّى ، قالوا : مه يا ضمام اتَّق البرص ؛

اتق الجذام ، واتق الجنون ، وقال : ويلكم ! انهما والله لا يضران ولا ينفعان ، ان الله قد بعث رسولا ، ونزّل عليه كتابا ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا إله الا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده ، بما أمركم به وما نهاكم عنه ، فما أمسى من ذلك اليوم في حيّه رجل ولا امرأة إلا مسلما .

وقدم عدي بن حاتم الجواد المشهور ، وأسلم بعدما رأى أخلاق رسول الله ﷺ وتواضعه ، حتى قال : والله ما هذا بأمر ملك .

وبعث رسول الله — ﷺ — معاذ بن جبل وأبا موسى الى اليمن ، للدعوة الى الاسلام ، وأوصاهما وقال : يسّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا

ولا تنفّرا .

وبعث رسول الله - ﷺ - المغيرة بن شعبة الى الطائف فكسر اللات ، ثم علا أعلى سورها وعلا الرجال معه ، فما زالوا يهدمونها ، حجراً حجرا ، حتى سوّوها بالأرض ، وأقبل الوفد حتى دخل على رسول الله - ﷺ - من يومه وحمده .

وكانت الوفود تتعلم الاسلام ، وتتفقّه في الدين ، ويشهدون أخلاق رسول الله ﷺ ، وعشرة أصحابه ، وقد تضرب لهم خيم في فناء المسجد ، فيسمعون القرآن ، ويرون المسلمين يصلّون ، ويسألون رسول الله ﷺ ، عمّا يجول في خاطرهم في بساطة وصراحة ، ويجيبهم رسول الله - ﷺ - في

بلاغة وحكمة ، ويستشهد بالقرآن فيؤمنون ، ويطمئنون .

فرض الزكاة والصدقات :

وفي السنة التاسعة للهجرة فرضت الزكاة .

حَجَّة الوَداع

أوان حجة الوداع :

ولما تم ما أراده الله ، من تطهير بيته ، من الرجس والأوثان ، وتاقت نفوس المسلمين الى الحج ، وقد بعد عهدهم عنه ، وطفحت [1] كأس الحب والحنان ، ودنت ساعة الفراق ، وألجأت الضرورة الى وداع الأمة ، أذن الله لنبيِّه في الحج – ولم يكن قد حجّ ﷺ ، في الاسلام – .

فخرج من المدينة ليحج البيت ، ويلقى

---

(١) امتلأت وفاضت .

المسلمين ، ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدي الشهادة ويبلغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق ويمحو آثار الجاهلية ، ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه ، وحجّ معه أكثر من مائة ألف إنسان وسميت هذه الحجة بـ « حجة الوداع » و « حجة البلاغ » .

كيف حج النبي ﷺ

عزم رسول الله - ﷺ - على الحج ، وأعلم الناس أنه حاجّ ، فتجهّزوا للخروج معه .

وسمع بذلك مَن حول المدينة ، فقدموا يريدون الحج ، مع رسول الله - ﷺ - ووافاه في الطريق خلائق لا يُحْصَوْن ،

فكانوا من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، مدّ البصر ، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظهر لخمس بقين من ذي القعدة يوم السبت ، بعد أن صلى الظهر بها أربعا ، وخطبهم قبل ذلك خطبة ، علمهم فيها الإحرام [1] وواجباته وسننه .

ثم سار وهو يلبّي ، ويقول : لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك ، ودخل مكة في رابع ذي الحجة ، ودخل المسجد الحرام ، وطاف بالبيت ، وسعى

(١) الاحرام : في اللغة ، المنع . وفي الشرع ، هو الاهلال بالحج أو العمرة ومباشرة أسبابهما من خلع الملابس المخيطة والاجتناب من الأشياء التي منع الشرع منها ، كالطيب والنكاح والصيد وما إلى ذلك .

بين الصفا والمروة ، وأقام بمكة أربعة أيام ، ثم توجّه يوم التروية [1] (ثامن ذي الحجة) توجه بمن معه من المسلمين الى منى ، ونزل بها ، وصلى بها الظهر والعصر ، وبات بها .

فلما طلعت شمس اليوم التاسع من ذي الحجة ، سار من منى الى عرفة ، وكان يوم جمعة فنزل بها .

وخطب الناس يوم عرفة وهو على راحلته ، خطبة عظيمة ، قرر فيها قواعد الاسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرّر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت المِلَلُ على تحريمها وهي الدماء والأموال

---

(١) يوم التروية : ثامن ذي الحجة ، لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء ، ويستقون ويسقون .

والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع فيها ربا الجاهلية كله ، وأبطله ، وأوصاهم بالنساء خيرا ، وذكر الحق الذي لهن وعليهن ، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف .

وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنهم لم يضلّوا ما داموا معتصمين به ، ثم أخبرهم أنهم مسئولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت ، فرفع إصبعه الى السماء ، واستشهد الله عليهم ثلاث مرات وأمرهم أن يبلّغ شاهدهم غائبهم .

فلما أتم الخطبة ، أمر بلالاً فأذّن ، ثم

أقام الصلاة ، فصلى الظهر ركعتين ، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضا .

فلما فرغ من صلاته ، ركب حتى أتى الموقف [١] ، فوقف ، وكان على بعيره ، فأخذ في الدعاء والتضرُّع والابتهال الى غروب الشمس ، وكان في دعائه رافعاً يديه الى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيها : « اللهم ! انك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث [٢] ، المستجير [٣] ، والوجل [٤] المشفق [٥] ، المقر

---

(١) محل الوقوف من عرفة .

(٢) المستنصر .

(٣) الملتجىء .

(٤) و (٥) الخائف .

المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذل جسده ، ورغِم أنفه لك ، اللهم ! لا تجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن بي رؤوفاً رحيما ، يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين » .

وهناك أنزلت عليه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا [1] » .

فلما غربت الشمس ، أفاض [2] من عرفة ، حتى أتى المزدلفة ، وصلى هنالك

---

(١) سورة المائدة – ٣ .

(٢) الافاضة : الزحف والدفع في السير بكثرة .

المغرب والعشاء ، ثم نام حتى أصبح ، فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت ، ثم ركب ، حتى أتى المشعر [1] الحرام ، فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل ، ثم سار من مزدلفة قبل طلوع الشمس ، وأسرع في السير حتى أتى منى ، فأتى جمرة العقبة [2] ، فرماها .

ثم رجع الى منى ، فخطب الناس خطبة بليغة ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله ،

---

(١) موضع في المزدلفة .

(٢) الموضع الذي يرمى بالجمار (أي الأحجار الصغار) ، والعقبة مكان في منى تقع فيه الجمرة الثالثة .

وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس أن لا يرجعوا بعده كفارا ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتبليغ عنه ، وقال في خطبته تلك : « اعبدوا ربكم ، وصلّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم » ، وودّع حينئذ الناس ، فقالوا : « حجة الوداع » .

ثم انصرف الى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة [1] بيده ، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره ، ثم أمسك وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المائة ، فلما أكمل - ﷺ - نحره ، استدعى بالحلاّق ،

(١) البدنة : ـبي من الجمل والناقة والبقرة ما يهدى الى بيت الله ولا يركب .

فحلق رأسه ، وقسم شعره بين من يليه ، ثم أفاض الى مكة راكبا ، وطاف طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة ، ثم أتى زمزم ، فشرب وهو قائم ، ثم رجع الى منى من يومه ذلك فبات بها ، فلما أصبح انتظر زوال الشمس ، فلما زالت ، مشى من رحله الى الجمار [1] ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثم الوسطى ، ثم الجمرة الثالثة ، وهي جمرة العقبة .

وتأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق [2]

---

(١) أي الجمرات الثلاث ، وتطلق على الصغار من الحصى أيضا .

(٢) أيام التشريق ، أصل التشريق هو تقديد اللحم وتجفيفه في الشمس ، سميت الأيام الثلاثة (العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر) من ذي الحجة بأيام التشريق لأن لحوم الأضاحي كانت تشرق فيها بمنى .

الثلاثة ، ثم نهض الى مكة ، فطاف للوداع ليلاً سحرا ، وأمر الناس بالرحيل ، وتوجه الى المدينة .

فلما أتى ذا الحُليفة ، بات بها ، فلما رأى المدينة ، كبّر ثلاث مرات ، وقال : « لا إله الا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آئبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، ثم دخلها نهارا .

الوفاة

كمال مهمة التبليغ والتشريع ودنوّ ساعة اللقاء :

ولما بلغ هذا الدين ذروة الكمال ، ونزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دِينا [1] » ، وبلّغ رسول الله – ﷺ – الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وأقرّ الله عين نبيه بدخول الناس في هذا الدين أفواجا ، أذِن الله لنبيِّه بفراق هذا العالم ودنت ساعة اللقاء ، وأعلم بذلك فقال :

---

(١) سورة المائدة – ٣ .

« اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيتَ الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبّح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توّابا [1] » .

شكوى رسول الله ﷺ

وقد ابتدأ شكوى رسول الله – ﷺ – في آخر شهر صفر ، وكان مبدأ ذلك أنه – ﷺ – خرج الى « بقيع الغرقد [2] » من جوف الليل ، فاستغفر لهم ثم رجع الى أهله ، فلما أصبح ابتدىء بوجعه من يومه ذلك .

قالت عائشة – أم المؤمنين (رضي الله عنها) – : رجع رسول الله – ﷺ – من البقيع ، فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي ،

(١) سورة النصر – ١ – ٣ .

(٢) مقبرة بالمدينة المنورة تسمى الآن بـ « البقيع » .

وأنا أقول : وارأساه ! فقال بل أنا والله يا عائشة وارأساه ! ، واشتد به وجعه ، وهو في بيت ميمونة – رضي الله عنها – فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرّض في بيت عائشة ، فأَذِنَّ له ، وخرج يمشي بين رجلين من أهله ، أحدهما فضل بن عباس ، والآخر علي بن أبي طالب عاصباً رأسه ، تخطّ قدماه ، حتى دخل بيت عائشة رضي الله عنها .

تقول عائشة – رضي الله عنها – وكان يقول في مرضعه الذي مات فيه : « يا عائشة ! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بـ « خيبر » ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري [١] من ذلك السمّ .

---

(١) الأبهر . عرق مستبطن بالصلب يتصل بالقلب ، فاذا انقطع مات صاحبه .

آخر البعوث :

وبعث رسول الله - ﷺ - أسامة بن زيد بن الحارثة الى الشام ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء و « الدارون » من أرض فلسطين .

وانتدب كثيراً من الكبار من المهاجرين والأنصار في جيشه ، كان من أكبرهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعثه رسول الله - ﷺ - ، واشتد به المرض ، وجيش أسامة مخيم بـ « الجرف » ، ونفّذ أبو بكر جيش أسامة بعد وفاة الرسول - ﷺ - تحقيقاً لرغبته ، واكمالاً لمراده .

وأوصى المسلمين في مرضه أن يجيزوا الوفد بنحو ممّا كان يجيزهم به ، وأن لا يتركوا

في جزيرة العرب دينين ، قال : « أخرجوا منها المشركين » .

دعاء للمسلمين وتحذير لهم عن العلو والكبرياء :

وفي يوم من أيام شكواه ، اجتمع نفر من المسلمين في بيت عائشة ، فرحّب بهم رسول الله - ﷺ - وحيّاهم ودعا لهم بالهدى والنصر والتوفيق ، وقال : أوصيكم بتقوى الله ، وأوصي الله بكم ، واستخلفه عليكم ، اني لكم منه نذير مبين ، أن لا تعلو على الله في عباده وبلاده ، فان الله قال لي ولكم :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فسادا ، والعاقبة

للمتّقين [1] ، وقال : « أليس في جهنم مثوىً للمتكبّرين [2] » .

زهد في الدنيا وكراهة لما فضل من المال :

قالت عائشة : قال رسول الله – ﷺ – في مرضه الذي مات فيه : « يا عائشة ! ما فعلت الذهب ؟ » فجاءت ما بين الخمسة الى السبعة أو الثمانية أو التسعة ، فجعل يقلبها بيده ويقول : ما ظن محمد بالله عز وجل ، لو لقيه وهذه عنده ، أنفقيها .

اهتمام بالصلاة وإمامة أبي بكر :

وثقل برسول الله – ﷺ – وجعه فقال :

(١) سورة القصص – ٨٣ .

(٢) سورة الزمر – ٦٠ .

أصلى الناس ؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! فقال : ضعوا لـي ماء في المخضب ، ففعلوا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ ، قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! قال : ضعوا لي ماء في المخضب [1] ، ففعلوا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ ، قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! قال : ضعوا لي ماء في المخضب ، ففعلوا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ ، قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! ،

(١) وعاء مثل المركن يغسل فيه الثياب .

والناس عكوف [1] في المسجد ينتظرون رسول الله - ﷺ - لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله - ﷺ - الى أبي بكر بأن يصلي بالناس، وكان أبو بكر رجلا رقيقا، فقال: يا عمر! صلّ بالناس، فقال: أنت أحق بذلك، فصلى بهم تلك الأيام.

ثم ان رسول الله - ﷺ - وجد خفّة، فخرج بين رجلين، أحدهما العبّاس، (والآخر علي بن طالب) - رضي الله عنهما - لصلاة الظهر، فلما رآه أبو بكر، ذهب ليتأخر فأومأ اليه أن لا يتأخر، وأمرهما، فأجلساه الى جنبه، فجعل أبو بكر يصلي قائما، ورسول الله - ﷺ - يصلي قاعدا.

---

(١) جمع عاكف. مقيمون.

خطبة الوداع :

وكان فيما تكلم به رسول الله — ﷺ — وهو جالس على المنبر ، عاصباً رأسه « أن عبداً من عباد الله ، خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » ، وفهم أبو بكر معنى هذه الكلمة ، وعرف أن رسول الله — ﷺ — يعني نفسه ، فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

آخر نظرة الى المسلمين وهم صفوف في الصلاة

وكان أبو بكر يصلي بالمسلمين ، حتى اذا كان يوم الاثنين ، وهم صفوف في صلاة الفجر كشف النبي — ﷺ — ستر الحجرة ،

ينظر الى المسلمين ، وهم وقوف أمام ربهم ، ورأى كيف أثمر غرس دعوته وجهاده ، فملىء من السرور ما الله به عليم ، واستنار وجهه وهو منير ، يقول الصحابة – رضي الله عنهم – :

« كشف النبي – ﷺ – ستر حجرة عائشة ، ينظر الينا وهو قائم ، كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسّم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح ، وظننا أن النبي – ﷺ – خارج الى الصلاة ، فأشار الينا أن أتمّوا صلاتكم ، وأرخى الستر ، وتوفي من يومه – ﷺ – .

تحذير من عبادة القبور واتخاذها مساجد :

كان آخر ما تكلم به رسول الله – ﷺ –

أن قال : قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لا يبقين دينان على أرض العرب .

تقول عائشة وابن عباس - رضي الله عنهم - : لما نزل برسول الله - ﷺ - طفق يطرح خميصة [1] له على وجهه ، فاذا اغتمّ كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذّر ما صنعوا .

الوصية الأخيرة :

كانت عامة وصية رسول الله - ﷺ - حين حضره الوفاة « الصلاة وما ملكت

---

(١) الخميصة . كساء أسود مربّع له علمان .

أيمانكم » ، حتى جعل يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه .

ويقول عليّ –رضي الله عنه– : أوصى رسول الله – ﷺ – بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم .

وتقول عائشة –رضي الله عنها– ذهبت أعوّذه ، فرفع بصره الى السماء ، وقال : في الرفيق الأعلى ، في الرفيق الأعلى .

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ، وبيده جريدة [1] رطبة ، فنظر اليها ، فظننت أن له بها حاجة ، قالت : فأخذتها فنفضتها ، فدفعتها اليه ، فاستنّ بها أحسن ما كان مستنّا ، ثم ذهب يناولنيها ، فسقطت من يده .

---

(٢) الجريدة قضيب النخل المجرد من الخوص .

قالت : وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء ، فجعل يدخل يده في الماء ، فيمسح بها وجهه ، ثم يقول : لا إله الا الله ، ان للموت لسكرات ، ثم نصب اصبعه اليسرى ، وجعل يقول : في الرفيق الأعلى ، في الرفيق الأعلى ، حتى قبض ، ومالت يده في الماء .

وقالت : نزل برسول الله — ﷺ — ورأسه على فخذي ، غشي عليه ساعة ، ثم أفاق ، فأشخص [1] بصره الى سقف البيت ، فقال : اللهم الرفيق الأعلى ، وكانت آخر كلمة تكلّم بها رسول الله — ﷺ — .

---

(١) أي رفع بصره ولم يطرق .

كيف فارق رسول الله ﷺ الدنيا :

فارق رسول الله - ﷺ - الدنيا ، وهو يحكم جزيرة العرب ، ويرهبه ملوك الدنيا ، وما ترك عند موته ديناراً ولا درهما ، ولا عبداً ولا أَمَة ، ولا شيئا ، الا بغلته البيضاء وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقة .

وتوفي ودرعه مرهونة عند يهوديّ بثلاثين صاعاً من شعير ، ما وجد ما يفتكّ به حتى مات - ﷺ - .

أعتق رسول الله - ﷺ - في مرضه هذا أربعين نفسا ، وكانت عنده سبعة دنانير أو ستة ، فأمر عائشة - رضي الله عنها - أن تتصدق بها .

تقول عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- : توفي رسول الله -ﷺ- وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد الا شطر شعير في رفّ [1] لي ، فأكلت منه ، حتى طال عليّ ، فكلته ففنى .

وكان ذلك في يوم الاثنين ، ١٢/ ربيع الأول ، سنة ١١/ للهجرة بعد الزوال ، وله -ﷺ- ثلاث وستون سنة ، وكان أشد الأيام سواداً ووحشة ومصاباً على المسلمين ومحنة للانسانية ، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس .

يقول أنس وأبو سعيد الخدري -رضي

---

(١) رفّ : هو خشبة عريضة يغرز طرفاها في الجدار وتوضع عليها الأشياء ، وهو يشبه الطاق .

الله عنهما – : كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء ، وبكت أم أيمن فقيل لها : ما يبكيك على النبي – ﷺ – ؟ قالت : اني قد علمت أن رسول الله ﷺ سيموت ، ولكن انما أبكي على الوحي الذي رفع عنّا .

كيف تلقّى الصحابة نبأ الوفاة :

ونزل نبأ وفاة رسول الله – ﷺ – على الصحابة كالصاعقة لشدة حبّهم له ، وما تعوّدوه من العيش في كنفه ، عيش الأبناء في حجر الآباء وكنفهم ، بل أكثر من ذلك ، قد قال الله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم[1] » .

وقد كان كل واحد منهم يحسب أنه أكرم عليه وأحبّ لديه من صاحبه ، ولم يكد بعضهم يصدّق بنبأ وفاته ، وكان في مقدمتهم عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فأنكر على من قال : مات رسول الله - ﷺ - وخرج الى المسجد ، وخطب الناس وقال : ان رسول الله - ﷺ - لا يموت حتى يفني الله المنافقين .

---

(١) سورة التوبة - ١٢٨ .

موقف أبي بكر الحاسم :

وكان أبو بكر – رضي الله عنه – رجل الساعة المطلوب ، والجبل الراسي [1] الذي لا يحول ولا يزول ، فأقبل من منزله حين بلغه الخبر ، حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت الى شيء ، حتى دخل على رسول الله – ﷺ – في بيت عائشة ، وهو مسجّى [2] فكشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه ، فقبّله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا ، وردّ

---

(١) الثابت الراسخ .

(٢) مغطى ببرد .

البرد على وجهه - ﷺ - .

ثم خرج وعمر يكلّم الناس ، فقال : على رسلك [1] يا عمر ! وأنصت فأبى إلا أن يتكلّم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه ، أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ! انه من كان يعبد محمدا ، فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت ، ثم تلا هذه الآية : « وما محمد إلاّ رسول ، قد خلت من قبله الرسل ، أفإنْ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن يَنقلب على عقبيه فلن يَضرّ الله شيئا ،

---

(١) أي أثبت ولا تعجل .

وسيجزي الله الشاكرين [1] » .

يقول من شهد هذا الموقف : والله كأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس عن أبي بكر ، فانما هي في أفواههم ، ويقول عمر : والله ما هو الاّ أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرتُ [2] ، حتى وقعت الى الأرض ، ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله - ﷺ - قد مات .

بيعة أبي بكر بالخلافة :

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة ،

---

(١) سورة آل عمران - ١٤٤ .

(٢) تحيرت ودهشت .

في سقيفة [1] بني ساعدة ، حتى لا يجد الشيطان سبيلا الى تفريق كلمتهم ، وتمزيق [2] شملهم [3] ، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم ، وليفارق رسول الله - ﷺ - هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة ، وشملهم منتظم ، وعليهم أمير يتولّى أمورهم ، ومنها تجهيز رسول الله - ﷺ - ودفنه .

كيف ودّع المسلمون رسولهم وصلّوا عليه ؟

وهدأ الناس ، وانجلى عنهم ما كانوا فيه من حيرة وغمرة ، وتشاغلوا بما علّمهم

---

(١) هي صفّة لها سقف كانوا يجتمعون فيها لفصل القضايا ، وكانت دار ندوتهم .

(٢) تمزيق : تفريق .

(٣) شمل : ما اجتمع من الأمر .

رسولهم من عملهم لمن فارق الدنيا .

ولما فرغ من غسله وتكفينه – ﷺ – وقد تولّى ذلك أهل بيته ، ووضع سريره في بيته ، وحدثهم أبو بكر أنه سمع رسول الله – ﷺ – يقول : ما قبض نبي الاّ دفن حيث يقبض ، فرُفِعَ فراش رسول الله – ﷺ – الذي توفي فيه ، وحفر له تحته ، وتولّى ذلك أبو طلحة الأنصاري .

ثم دخلوا يصلون عليه أرسالا ، دخل الرجال حتى اذا فرغوا ، أدخل النساء ، حتى اذا فرغ النساء ، أدخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله – ﷺ – أحد .

وكان ذلك يوم الثلاثاء :

وكان يوماً حزيناً في المدينة ، وأذَّن بلال بالفجر ، فلما ذكر النبي - ﷺ - بكى وانتحب ، فزادِ المسلمين حزنا ، وقد اعتادوا أن يسمعوا هذا الأذان ورسول الله - ﷺ - فيهم ، تقول أم سلمة - أم المؤمنين - : يا لها من مصيبة ، ما أُصبنا بعدها بمصيبة الا هانت ، إذا ذكرنا مصيبتنا به - ﷺ - ، وقد قال النبي - ﷺ - بنفسه : يا أيها الناس أيما أحد من الناس أو (من المؤمنين) أصيب بمصيبة ، فليتعزّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيره ، فان أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي .

أزواجه أمهات المؤمنين :

كانت خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية -رضي الله عنها- أولى أزواج النبي - ﷺ - تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين ، وجميع أولاده - ﷺ - منها غير سيدنا ابراهيم .

ثم تزوج بعد موتها بأيام سودة بنت زمعة القرشية ، ثم تزوج بعدها عائشة ، الصديقة بنت الصديق ، وهي أفقه نساء الأمة وأعلمهن ، ثم تزوج حفصة بنت عمر الخطاب رضي الله عنه ، ثم تزوج زينب بنت خزيمة ، وتوفيت عنده بعد شهرين ، ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية ،

وهي آخر نسائه موتا ، ثم تزوج زينب بنت جحش وهي ابنة عمته أميمة ، وتزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية ، ثم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، ثم صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهي آخر من تزوج بها ، وتوفي ﷺ عن تسع زوجات ، وهنّ من ذكرنا غير خديجة وزينب بنت خزيمة ، فقد توفيتا في حياته — ﷺ — .

وتوفي عن سريتين مارية بنت شمعون القبطية المصرية ، أهداها اليه المقوقس عظيم مصر ، وهي أم ولده ابراهيم عليه السلام ، وريحانة بنت زيد من بني النضير أسلمت فأعتقها ، ثم تزوجها .

أولاده ﷺ :

ولدت له خديجة القاسم وبه كان يكنى ، ومات طفلا ، ثم زينب ، ثم رقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، وعبد الله ، والطيب والطاهر ، لقبان له ، وهؤلاء كلهم من خديجة رضي الله عنها ، وفاطمة أحب بناته اليه ، وأخبر بأنها سيدة نساء أهل الجنة ، وتزوجت علي بن أبي طالب ، ابن عم رسول الله - ﷺ - فولدت له حسناً وحسينا ، وفيهما قال رسول الله - ﷺ - الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

وولدت له مارية القبطية ابراهيم ، فتوفي وقد ملأ المهد ، وقد قال ﷺ حين توفي :

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنا يا ابراهيم لمخزونون » .

الأخلاق والشمائل

وصفه علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وهو من أعرف الناس به ، وأكثرهم عشرة له ، وأقدرهم على الوصف والبيان ، فقال : «لم يكن فاحشا [1] ، متفحشا [2] ، ولا صخاباً [3] في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح [4] ،

(١) أي ذو فحش من القول والفعل ، وان كل استعماله في القول أكثر منه في الفعل والصفة .
(٢) أي ولا المتكلف به ، أي ولم يكن الفحش له خلقيا ولا كسبيا .
(٣) اي صيّاحا .
(٤) صفح عنه : أعرض عنه وتركه ، بابه فتح .

ما ضرب بيده شيئاً قط ، الا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا ضرب خادماً ولا امرأة ، ما رأيته منتصراً [1] من مظلمة ظلمها قط ، ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء ، فإذا انتهك من محارم الله تعالى ، كان من أشدهم غضبا، وما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما .

(واذا دخل بيته) كان بشراً من البشر، يفلي [2] ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه .

ويقول : « لا يقوم ولا يجلس الا على ذكر واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم

---

(١) منتقما .

(٢) فلى فليا رأسه أو ثوبه نقاهما من القمل .

عليه منه ، من جالسه أو فاوضه [1] في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . ومن سأله حاجته لم يردّه الاّ بها أو بميسور من القول .

قد وسع الناس بسطه وخلقه . فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء . مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة .

... أجود الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة [2] ، وألينهم عريكة [3] ، وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبّه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله - ﷺ - .

---

(١) عامله في حاجة أو خالطه

(٢) اللسان .

(٣) الطبيعة . ج عرائك .

وقد كسا الله نبيَّه لباس الجمال ، وألقى عليه محبة ومهابة منه ، وصفه البراء بن عازب - رضي الله عنه - فقال : «كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مربوعاً [1] وقد رأيته في حلّة حمراء ، ما رأيت شيئاً قط أحسن منه ، ووصفه أبو هريرة - رضي الله عنه - فقال : «كان ربعة [2] ، وهو الى الطول أقرب ، شديد البياض ، أسود شعر اللحية حسن الثغر ، أهدب [3] أشعار العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، (الى أن قال) لم أر مثله قبل ولا بعد ، ويقول أنس - رضي الله عنه - ما مسست

---

(١) مربوعا : أي وسيط القامة

(٢) ربعة : الوسيط القامة .

(٣) الطويل الأشعار .

ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله
- ﷺ - ، ولا شممت رائحة قط أطيب
من رائحة رسول الله- ﷺ - .